ذخائر الفكر الاسلامي

٧

واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم

أبو الأعلى المودودي
امير الجماعة الاسلامية بباكستان

الناشر
مكتبة الشباب المسلم
دمشق - ص . ب ٥٥٦
شارع الحلبوني

ذخائر الفكر الاسلامي

٧

واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم

أبو الأعلى المودودي

امير الجماعة الاسلامية بباكستان

الناشر

مكتبة الشباب المسلم

دمشق - ص . ب ٥٥٦

شارع الحلبوني

ذخائر الفكر الاسلامي – ٧

تعريب

محمد عاصم الحداد

معتمد دار العروبة للدعوة الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لانبي بعده .

وبعد ، فلئن كانت دعوة الاسلام تتطلب ، لتحقيق اهدافها، نفوساً كباراً تتسع لمعانيها ، ولا يقفها ، عن مواصلة السعي، الأغراض والمصالح الصغيرة ، وعزائم ماضية لايثنيها ، عن غايتها ، وعثاء الطريق ولا بعد المبتغى ، فانها لتتطلب – إلى هذا وذاك – العقول اليقظة ، والبصائر النيرة ، التي تعي أهداف هذه الدعوة ووسائلها ،لنمضي ، في طريقنا ، على بصيرة من الامر ، لاينحرف بنا السبيل ، ولا يعمى علينا الهدف ، فنسير وراء سراب خادع ، أو نقنع بكسب هزيل .

وهذا ما توخيناه عند ما عقدنا العزم على نشر هذه السلسلة من الدراسات الاسلامية ، .. أردنا ان تكون عوناً للشباب المسلم على تزويده بثقافة اسلامية نيرة ، تبصره بحقيقة دينه ، وتقفه على اهداف دعوته ، وتنير امام ناظريه السبيل .

★ ★ ★

والرسالة التي نقدمها اليوم مما يقربنا من هذه الغاية ، وهي محاضرة كان ألقاها الأستاذ ابو الأعلى المودودي في مؤتمر « الجماعة الاسلامية » المنعقد في كراتشي في ١٢ ، و ١٣ ، و ١٤ ، و ١٥ صفر سنة ١٣٧١ ﻫ وفق ١١ و ١٢ ، و ١٣ ، و ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٥١ م ، وكان قد قدّم بين يديها محاضرة أخرى تحدث فيها عن المفاسد وضروب الانحراف في وضع باكستان ، ثم عرض ، في هذه المحاضرة التي نقدمها اليوم . الى حقيقة دعوة الجماعة ، وأبان الهدف الذي يرمي اليه دعاة الاسلام ، ثم تطرق الى دراسة واقع المسلمين ، وتتبع المفاسد الشائعة في حياتهم ، وردها الى أصولها في ماضيهم ، ثم تحدث عن الحضارة الغربية المعاصرة ، وأماط اللثام عن اهدافها التاريخية ، وطبيعة القوى التي توجهها ، والتيارات الفكرية والفلسفية التي حددت لها مثلها ، وما ترك احتكاك المسلمين بها من آثار متباينة في حياتهم الفكرية والاجتماعية والسياسية ، ثم أفضى الى الحديث عن الطريق الذي اختارته الجماعة الاسلامية – تحت قيادته – لتحقيق اهداف الدعوة الاسلامية .

وقد تناول الأستاذ المودودي هذا كله بما عرف عنه من أصالة الرأي ، وعمق النظر ، وطرافة العرض .

وقام بنقلها الى العربية الأستاذ « محمد عاصم الحداد » معتمد دار العروبة للدعوة الاسلامية » .

★ ★ ★

والله نسأل أن يمدنا بعون منه ، لنمضي فيما انتدبنا له ، وأن يجعل نياتنا خالصة لوجهه ، وسبحانك اللهم وبحمدك ، نشهد ان لا إله الا أنت ، نستغفرك ونتوب اليك .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

واقع المسلمين

وسبيل النهوض بهم

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

قد استعرضت لكم امس ، في خطبتي الافتتاحية ، ما عليه حال بلادنا اليوم ، وفصلت القول في ما دب ، في كل ناحية من نواحي حياتنا ، من المفاسد والسيئات ، ثم بينت لكم أسبابها وعللها . وأريد ان أعرض عليكم اليوم ما أعددنا من برامج نثق ان تكون علاجاً حاسماً ووسيلة ناجعة لاصلاح هذه المفاسد وقطع دابرها ان شاء الله .

ولكن يبدو لي قبل ان أتقدم في بيان هذا البرنامج ، ان أزيل سوء فهم يمكن ان يقع فيه بعض الناس ، وهو انه اذا بينت لكم برنامج الجماعة الاسلامية بعد بسط الكلام في المفاسد الحاضرة وأسبابها ، فلا يذهبن بكم الظن الى انه ما قامت هذه الجماعة إلا لاصلاح مثل هذه المفاسد الموقتة ، وليس امامها من غاية إلا ان تجدد ما تهدم من الأبنية القديمة البالية . فكل هذا مما لا يوافق الامر الواقع ، فان الجماعة الاسلامية واضعة نصب عينها غاية عالمية حيوية مستقلة وإليكموها :

« أن تستأصل شأفة كل نظام للحياة أسس بنيانه ووضعت قواعده على الانسلاخ من عبودية الله وعدم المبالاة بالمسؤولية الأخروية والاستغناء عن تعاليم الانبياء وإرشاداتهم ، فانه مبيد للانسانية مقوض لدعائمها ، وان

تقيم مكانه نظاماً للحياة مبناه على طاعـــة الله عز وجل والايمان بالآخرة واتباع الرسل والانبياء ، فانه لا سعادة للانسانية ولا فلاح إلا فيه » .

فتلك هي الغاية التي تدور حولها مساعي الجماعة ومجهوداتها كلها ، ولا يوضع برنامج من برامجها ، ولو كان لزمان معين ومكان محدود ، إلا لقطع مرحلة من مراحلها . ونريد ان نحدث هذا الانقلاب في أرضنا باكستان قبل غيرها لنجعلها وسيلة لاصلاح الدنيا قاطبة ، فإن كنتم تشاهدوننا اليوم نتناول بالبحث مفاسد باكستان ومصائبها الحاضرة ، فلأنها تعوقنـــا عن المضي في سبيلنا ، وتحول دون البلوغ الى هذه الغاية المرموقة . فلا تظنن أن إصلاح تلك المفاسد هو المقصود من وراء مجهوداتنا من حيث هو ، أو أننا نريد الاكتفاء بترميم بناء نظام فاسد . كلا ! بل الأمر أنه لو لم توجد فينا اليوم هذه المفاسد ، لرأيتمونا نعمل ونجد في بلوغ نفس هذه الغاية التي جعلناها نصب أعيننا منذ اول الامر . فغايتنا هذه غاية سرمدية عالميـــة شاملة لا يعوقنا عن بلوغها شيء ولا نزال نكافح في سبيلها في كل حال ، سواء أعرضت لنا في بقعة من بقاع الارض مسائل موقتة من نوع واحد أم من نوع آخر .

نظرة في التاريخ الغابر : والحاجة ماسة بعد هذا الايضاح الى ان تستعرضوا تاريخكم الغابر كما استعرضتم المفاسد الحاضرة ، حتى تكونوا على بينة من الامر وتعرفوا حق المعرفة هل حدثت هذه المفاسد ومواطن الضعف بغتة كحادث اتفاقي في مجتمعكم ام لها اصل راسخ تتغذى منه ، ووراءها سلسلة من الاسباب والعلل طويلة ؟ ..

وما دمتم لا ترون الامر ولا تعرفون حقيقته على هذا النحو فلا يمكن ان تتضح لكم شدة هذه المفاسد وسعتها واستفحالها ولا تكادون تشعرون بحاجة الى الاصلاح ولا تتفطنون الى ما يجعلنا اليوم نرى الاصلاح الجزئي في البلاد نفخاً في رماد او صيحة في صحراء، ونعتقد انه ما دمنا لا نأتي في هذه البلاد بتغيرات اساسية في نظام حياة اهلها بجهود متواصلة وبرنامج للاصلاح شامل وجماعة منظمة صالحه، لا يمكن ان تعود علينا التدابير التافهة والمشاريع الساذجة بشيء نافع ابداً .

* * *

ومن اهم حوادث تاريخنا واكثرها عبرة وعظة انه استولت على بلادنا في القرن الماضي – الثالث عشر للهجرة – التاسع عشر للميلاد – امة اجنبية غير مسلمة جاءتنا من وراء البحار، ولم نتخلص من نير عبوديتها الا قبل اربعة اعوام فقط . وعلينا ان نفكر في هذه الفاجعة التاريخية من عدة وجوه :

١ – لماذا ابتلينا بها ؟ أفكانت هي حادثة مفاجئة حلت بنا من غير سبب ام كانت من قبيل ظلم الطبيعة ايانا اذاقتنا لباسه من غير ما جريمة اتيناها، وكنا في حياتنا راشدين على صراط مستقيم ؟ اوَ لم يكن فينا وهن ولا فساد ؟ ام كنا نربي في انفسنا ضروباً من السيئات والرذائل منذ آماد طويلة من الزمان لقينا مغبتها بصورة ان استولت علينا امة اجنبية، وارهقتنا بعصا قهرها واستعبادها ؟ فان كان الامر أن كانت فينا سيئات ورذائل ضعضعت كياننا وهدمت مقوماتنا فما هذه الرذائل والسيئات ؟ اوَ قد تحررنا منها ام لا تزال لها باقية فينا ؟

٢ – وهل كان هذا الكابوس الذي استولى علينا من وراء البحار كابوسَ الاستعباد فقط ام لزمة وصحبه بطبيعة الحال انواع من الآلام

والبلايا في حقول الاخلاق والافكار والدين والمدنية والثقافة والاقتصاد والسياسة ؟ فان صحبه – ومن الذي يشك في ذلك – انواع من البلايا والآلام فلنتفكر ماذا كان من تأثيرها ، والى اي الجهات امتد نفوذها؟ وهل لها من آثار لا تزال باقية الى اليوم بعد زوالها وانقشاع غياهبها .

٣ – والمسألة الثالثة : ما هو رد الفعل الذي كان منا على هـذه البلايا والآلام ؟ هل كان رداً واحداً من يـد واحدة ام كانت الردود تختلف باختلاف الطوائف ؟ فان كانت مختلفة ، فمـاذا كان من آثارها المستحسنة والمستهجنة التي توجد اليوم في حياتنا القومية ؟

فهذه مسائل ثلاث سأبذل جهدي في ايضاحها كيما تتجلى لكم صلة كل مفسدة من مفاسدنا الحاضرة بما مضى من تاريخنا ، وتعرفوا حق المعرفة ، منبتها ، والى أين تمتد جذورها ، وما هي الاسباب التي تتغذى منها ؟

✡ ✡ ✡

أسباب عبوديتنا

إن الاستعباد الذي ابتلينا به في القرن الماضي إنما كان نتيجة محتومة لانحطاطنا الديني والخلقي والفكري الذي كنا مترددين فيه من قرون عديدة ؛ حتى بلغ بنا الأمر من الضعف والتقهقر والانحطاط ، أنه لم يعد من الممكن ان يقرلنا قرار ، وان نثبت على اقدامنا بانفسنا ، وأصبح لزاماً علينا ان تحل بنا نازلة من النوازل ، فها هي ذي قد نزلت بنا في صورة الاستعمار البريطاني وفقاً لقانون الطبيعة .

حالتنا الدينية : ولنكون على حقيقة من الأمر يجب علينا ان نستعرض ، قبل كل شيء ، ما كانت عليه حالة بلادنا الدينية في القرن الماضي ، فان أهم شيء لدينا هو الدين ، ولا غرو فهو ملاك حياتنا وهو الذي ربط بين قلوبنا وأرواحنا وجعلنا أمة واحدة ، وهو الذي لايمكن ان نقوم ونظل قائمين في الدنيا إلا به .

والذي يشهد به تاريخنا الماضي ان الاسلام ،ماانتشرفيهذهالبلادنتيجة لمساعٍ مبذولة منظمة . فاذا استثنينا الأيام الأولى من الفتح الاسلامي في السند والقرن الذي بعده ، لا نكاد نعثر في عصر من العصور على قوة منظمة بذلت جهودها في بث الاسلام وتعميم دعوته في هذه البلادبجانب ، وسهرت على تدعيم اركانه واستحكام عراه حيث انتشر وبذرت دعوته في

جانب آخر . وغاية ما كان في الامر ان جاء الى قرية من القرى اومدينة من المدن رجل مسلم من اهل العلم والمعرفة فدخلت طائفة من الناس في الاسلام على يده ، أو جاء اليها تاجر من التجار المسلمين فأسلم بعض الناس بسبب الاختلاط به ، أو نزل بها رجل ورع من أنزه المسلمين سيرة وخلقاً وعشرة ، فتأثر الناس بسمو أخلاقه وصفاء حياته ، فقبلوا الاسلام ودخلوا في كنفه . الا ان هؤلاء الافراد المنفردين لم يكن بأيديهم من الوسائل مايساعدهم على العناية بتعليم الذين أسلموا على أيديهم وتربيتهم وتلقينهم مبادىء الدين واصوله ، ولا كان يهم الحكومات المسلمة وقتئذ أن تعنى بتعليم المهتدين وتربيتهم حيثما انتشر الاسلام ودخل الناس في حظيرته بمساعي هؤلاء الافراد المنفردين .

فكان من جراء هذه الغفلة أن ظل عامتنا سادرين في الجهل والجاهلية منذ اول أمرهم . أما المعاهد التعليمية فما استفاد منها إلا رجال من الطبقات العليا أو الوسطى . وما زال الدهماء في جهل تام بتعاليم الاسلام محرومين من آثاره الاصلاحية إلى حد عظيم ، وقد سبب كل ذلك ان كان الناس من غير المسلمين يدخلون في دين الله شعوباً وقبائل ، إلا ان كثيراً من الرسوم الباطلة والعادات الجاهلية مما كانوا عليه قبل اسلامهم ، لا تزال متفشية فيهم الى يومنا هذا ، بل لم تتغير افكارهم ومعتقداتهم تغيراً تاماً ، ولا يزال يوجد فيهم ، الى الآن ، كثير من عقائد المشركين وأوهامهم التي ورثوها عن اديان آبائهم الكافرين . وأقصى ما حدث فيهم من الفرق بعد اسلامهم ان اخرجوا من تاريخ الاسلام آلهة لهم جديدة مكان الآلهة التي كانوا يعبدونها من قبل ، واختاروا لأعمالهم الوثنية القديمة اسماء جديدة

من المصطلحات الاسلامية ، أو بقي العمل على ما كان عليه من قبل وانما تغير قشره ولونه الظاهري .

فان اردتم الشاهد على ما اقول ، فسرحوا النظر في ما عليه حالة الناس الدينية في بقعة من بقاع بلادكم ، ثم ارجعوا الى التاريخ وابحثوا عن الدين الذي كان الناس يدينونه في هذه البقعة قبل ان ياتيهم الاسلام ، فستعلمون انه توجد هناك كثير من العقائد والاعمال التي تشبه عقائد الدين المنقرض واعماله الا أنها في شكل آخر ولون غير لونه . فالبقاع التي كانت فيها الديانة البوذية قبل الاسلام مثلاً ، كان الناس يعبدون فيها آثار بوذا ، فهنا سن من اسنانه ، وهناك عظم من اعظمه . وثمـــة شيء آخر من اشيائه يعبده الناس ويتبركون به ، وإنكم لتجدون اليوم ان الناس في هذه البقاع يعاملون مثل هذه العاملة شعراً من أشعار النبي ﷺ أو اثراً من آثار قدمه أو يتبركون بآثار بعض صالحي المسلمين وعابديهم . وكذلك اذا استعرضتم كثيراً من الرسوم والعادات المتفشية اليوم في بعض القبائل المتوغلة في اسلامها ، ثم نظرتم في مايروج في البطون غير المسلمة لهـــذه القبائل نفسهـا من الرسوم والتقاليـد ، فقليـلًا ماتجدون فارقاً بين هذه وتلك . افليس ذلك مما يشهد شهادة ناطقة بأن الذين كان بيدهم زمام امر المسلمين وشؤونهم الاجتماعيـة في القرون السالفـة ، قصروا عموماً في اداء واجبهم ايما تقصير ، فانهم مامدوا يد التعاون والمساعدة الى الذين بذلوا جهودهم في نشر الاسلام ، فقد انجذب مئات الملايين من الناس الى حظيرة الاسلام متأثرين بدعوته ، ولكن الذين كانوا سدنة لبيت الاسلام متولين اموره ، لم يعنوا ، في قليل ولا كثير ، بتعليم خلق الله وتربيتهم وتزكية حياتهم واصلاح فكرتهم ، فلم يكتب لهؤلاء القوم من المسلمين

أن يتمتعوا ببركات الاسلام ونعم التوحيد حق التمتع وان يقوا انفسهم المضار التي هي نتيجة لازمة للشرك والجاهلية . ثم ارجعوا ببصركم الى ما كان عليه علماؤنا ومشايخنا في هذه القرون الماضية . فما لامجال فيه للريب والمكابرة ان كان فيهم نفر اسدوا الى هذا الدين خدمات جليلة كانت نافعة بالامس ولاتزال نافعة الى اليوم . الا ان المشاغل التي شغلت معظم علمائنا وألهتهم عن الجد في أمر الدين الحقيقي . كانت من قبل أن كانوا يتناظرون في المسائل التافهة غير المهمة ، ويجسمونها في نظر الناس ويوارون عنهم المسائل الهامة الجليلة ، ويجعلون الخلاف أساساً لفرق مستقلة ، ويجعلون التحزب والتفرق مضماراً للمجادلات والمخاصمات ، ويقتلون أعمارهم في تعليم علوم المعقولات اليونانية وتعلمها ، أما الكتاب والسنة فلم يكن لهم ولوع بدراستها ولم يؤتوا حظاً من معارفها. ولذلك لم يتمكنوا من تعميم معارف القرآن والسنة وترغيب الناس في ارتياد مناهلها وإن كان لهم بعض شغف بالفقه ، فذلك إلى حد يعينهم على مجادلاتهم ومناقشاتهم في الجزئيات والفروع ، ولم يلتفتوا ولو أدنى التفات الى التفقه في الدين بمعناه الشامل فحيثما كان لهم نفوذ أو تأثير ، ضاقت وجهة نظر الناس في الدين .

وها نحن أولاء قد ورثنا اليوم هذا الزرع الاخضر من المجادلات والمناظرات والتحزبات والفتن المستمرة .

وإن تعجب ، فعجب من حال الصوفية ، فانكم اذا سرحتم النظر فيهم ، لاتجدون من بينهم من عملوا بالتصوف الاسلامي الحقيقي وعلموه الناس الا عدداً يسيراً ، أما معظمهم فكانوا يدعون الناس ويرشدونهم الى تصوف كان مزاجه الفلسفات الاشراقية والويدانتية والمانوية والزردشتية

وكانت طرق الرهبان والاحبار والاشراقيين والرواقيين اختلطت به اختلاطاً ، حتى لم تبق له علاقة بعقائد الاسلام واعماله الخالصة الا قليلا . ولقد كان عباد الله يرجعون اليهم مستهدين إلى الله وهم يهدونهم الى طرق معوجة وسبل زائغة . ثم لما خلف من بعـــدهم خلف ، ورثوا ، في ما ورثوا عن اسلافهم ، مريديهم واتباعهم ، ولم يبقوا ممـــا كان بينهم من العلائق الا على علاقة النذور والهدايا دون الارشاد والوعظ والتربية واكثر ماسعت له هذه الدوائر ، ولا تزال تسعى له ، هو ألا يتسرب قبس من العلم الصحيح بالدين الى حيث لمشيختهم النفوذ والتأثـــير ، فانهم يعرفون كل المعرفة أنه لن يدوم لسحرهم ودجلهم تأثير في الناس الا ماداموا جاهلين بدينهم .

* * *

الحالة الخلقية : هذا ما كانت عليه حالتنا الدينية التي كانت لها يد ، وأي يد ، في دفعنا الى درك الاستعباد في القرن التاسع عشر ، ولا تزال هذه الحالة ، بما فيها من الرذائل والسيئات ، مسيطرة علينا حتى بعد تبلج صبح الاستقلال والحرية اليوم .

واذا نظرنا من الوجهة الخلقية ، كان الانحطاط والتـــدهور الخلقي المستمر قد بلغ بطبقتنا الوسطى ـ وهي قوام كل امة وعماد أمرها كما لايخفى ـ مبلغاً جعل من رجالها عمالاً مستأجرين (Mercenarg) من فطرتهم ان يخدموا كل من استأجرهم ثم استعملهم واستخدمهم في ماشاء ولأي غرض شاء . فكان مئات الالوف من رجالنا مستعدين ليكونوا جنوداً مستأجرين يستخدمهم من شاء ويوقد بهم نار الحرب على من احب ،

وكذلك كان ألوف بل مئات الالوف من شبابنا مستعدين ليكتري منهم كل متغلب فاتح أيديهم وقواهم الذهنية بأجرة بخسة أو وافرة ، ثم يسيّر بها إدارة ملكه ، بل يستعملها في مداوراته الدبلوماسية السياسية ، فاستغل ضعفنا الخلقي هذا كل عدو من اعدائنا سواء أكان من المرهتة أو السيك او الفرنسيين والهولنديين ، واخيراً فتح الانكليز بلادنا ودوخوها بسيوف رجالنا وتحكموا في اعناقنا بأيدينا واذهاننا . ومما يدمي العين ويفجع القلب ان وعينا الخلقي قد انطفأت جذوته حيث بدأنا نفتخر بأعمالنا بدلا من ان نشعر بقبح ضيعها وسوء مصيرها ، وقد عدها أحد كبار شعرائنا من مفاخر اسرته ومآثرها وقال ما معناه ان الجندية مهنة آبائه وأجداده كابراً عن كابر ، والحال ان تعاطي المرء الجندية كمهنة، عارٌ عليه وعلى ذويه بدل ان يكون مفخرة أو محمدة ، فأين يكون من المروءة والانسانية من لا يكاد يفرق بين الحق والباطل ولا يميز صديقه من عدوه ؟ فكل من ملأ بطنه خبزاً وكسا جسده ثوباً ، استعد للقتال معه والذود عن حياضه ، من غير أن يهمه ، في قليل ولا كثير ، من يقاتله ولمن يظهر بأسه وشجاعته فالذين كانوا على مثل هذه الحال من الاخلاق ، كان ـ وينبغي أن يكون ـ من المستحيل أن يوجد فيهم نوع من الامانة والاستقامة والولاء الثابت المنبعث من قرارة الانفس وأعماق الصدور . واذا كان من السهل عليهم ان يبيعوا انفسهم من أعداء دينهم وأمتهم ويساوموهم فيها ، فماذا عسى أن يكون من السبب لأن يبقى فيهم ضميرٌ حيٌ قوي طاهر ، وما لهم ألا يسموا الارتشاء والغبن منحة ربانية وفضلاً من الله ، وما لهم ألا يكونوا انتهازيين (Opportuisnts) يترقبون فرص التمتع والانتفاع ويستسلموا لكل قوة تظهر بمظهر الغلبة

والعلو ؟ وماهم الا يتخلقوا بأن يـأتوا كل شيء يريده منهم من يسخو عليهم برواتبهم غير آبهين لايمانهم وضمائرهم ؟ ومن هنا، لك أن تقـدر أن الصفات التي تظهر بمظهرها اليوم أغلبية رجال الطبقة الموظفة منا ، ليست بضعف اتفاقي نشأ فيهم بين عشية وضحاها ، بل لها اصول راسخة وجذور مستحكمة في تاريخنا الماضي . إلا انه مما يدعو الى الاسف أن هذا الضعف الذي كان أعداؤنا يستغلونه بالامس ، نرى اليوم زعماء امتنا يستخدمونه لاغراضهم ، ممن كان المرجو منهم أن يكونوا أساة لادواء الامـة بدلا من أن يستغلوها لأغراضهم .

وكذلك كان علماؤنا يشاركون الطبقة الوسطى في أمراضها الخلقيـة التي تقدم ذكرها آنفاً ، وإن كان فيهم رجال من ذوي الاخلاق الفاضلة والطباع المستقيمة كما كان أمثالهم في الطبقـة المتوسطة ، الذين عرفوا واجبهم حق المعرفة وبذلوا في أدائه مهجهم ، ولم تستطع قوة من قوى العالم أن تساومهم في دينهم . إلا أن معظمهم كانوا من الحالة الخلقيـة على مثل ما كان عليه رجال طبقتنا الوسطى . فكان معظمهم ينالون الرواتب والجرايات من الحكومات ، وما زال من شعارهم أن يتعلقوا بأذيال أمير من الأمراء ، أو ملك من الملوك ، أو رجل من حواشيهم ، ويعبروا الدين ويؤولوا أحكامه وقوانينـه كما يرضاه ويشتهيه ، ويقدموا أهواءهم الشخصية ومصالحهم الذاتية على الدين ومقتضياته ، ويستعملوا سلاح الدين تضييقاً على دعاة الحق وارضاء لسادتهم واولياء رزقهم . وكان ديدنهم أن يتهاونوا في شأن المسائل الأساسية والمهمات الخطيرة ، ويشددوا في الفروع والجزئيات التافهة . ومن ههنا كان شعورهم الديني مرهفاً غاية الارهاف في باب عامة الناس والذين لا نفوذ لهم ولا سلطان ، إنهم كانوا لا يكادون

يصفحون عنهم في التهاون في الامور المستحبة ، وربما أوقدوا نيران الخصومات والشقاق بين الأمة لأجل أمثال تلك المسائل الفرعية التافهة .

أما الاغنياء وأرباب الجاه والثروة ممن يملكون النفوذ والسلطة ، فظلوا لهم سواء كانوا من المسلمين أو غيرهم ، رمزاً للمجاملة والمصالحة ، وأخرجوا لهم الرخص والتسهيلات لا في الفروع والجزئيات فحسب ، بل في المبادىء والاصول أيضاً .

أما أغنياؤنا فما كان ليهمهم في الدنيا ويشغل بالهم الا شيئان : البطن والفرج . فلم يكن بعدهما شيء في الدنيا يستحق الالتفات والاهمية في نظرهم ، بل كانت جل مجهوداتهم ومساعيهم مرتكزةً حولهما منحصرة في سبيل خدمتهما ، وما كانت أموال الامة وثروتها تنفق الا في سبيل ترقية مهن وصناعات وحرف تقوم بنوع من الخدمة لهذين . فاذا بذل غني من الاغنياء ثروته وقوته في غاية أسمى وغرض أشرف ، حاول سائر الاغنياء مجتمعين إسقاطه والتنديد بمنزلته ولم يتحرجوا في مؤامرة مع اعداء الامة لاحباط مسعاه المحمود والتغلب على أمره .

الحالة الفكرية والعلمية :

ثم اذا استعرضنا ، ما كانت عليه حالتنا الفكرية والعلمية في هذه القرون ، ظهر ان باب التحقيق والاجتهاد العلمي كان موصداً عندنا الى حدعظيم منذ عدة قرون ، فكنا لاندرس ولا ندّرس الا ما تركه لنا اوائلنا واسلافنا . والفكرة التي سادت وكانت لها جذور متأصلة في نظام تعليمنا ان كل شيء قد تم على يد اسلافنا ، هو آخر لبنة في بناء العلم والتحقيق ، لا يضاف ولا يمكن ان يضاف اليه بعدها شيء ابداً . فاعظم خدمة يمكن اسداؤهاالى الامة ان يذيـّل ما كتبه الاولون بحواشٍ وشروح .فبتاليفها

اشتغل مؤلفونا. وبتدريسها اشتغل مدرسونا فلا نكاد نعثر في هذه القرون على فكرة مبتكرة واختراع مبتدع واكتشاف جديد، وبذلك طرأ علينا جمود فكري وغشي اجواءنا العقلية سحابة سوداء من العقم والتبلد. فالظاهر ان كل امة ابتليت بمثل هذه الحال لا يمكن ان تطول بها الحرية ولا بد ان تغلب على امرها امة حية قوية قد احدثت اليقظة والنشاط في ابنائها، وكان الشعور بالواجب يسود رجالها على حسب ما يفهمون من واجبهم وكان الولاء المستقل الخالص موجوداً في عاملها وزعمائهـــا وأولي الامر منها، وكان أهل العلم من أبنائها محققين مخترعين للقوى الجديدة وكان أهل الحزم والرأي مستخدمين هذه القوى الجديدة المكتشفـــة في مختلف نواحي الحياة وشؤونها، وكانوا مستمرين في التقدم إلى الرقي والعلا في مختلف شعب المدنية والثقافة.

فاذا وجدت في الارض مثل هذه الأمة الحية، فالى متى كان يمكن أن تبقى مالكةً زمام الامر متصرفة في أمور البلاد أمةٌ قد ضربت عليهـــا عوامل الجمود والانحلال الخلقي، وتغلغلت في عروقها الجاهلية؟ فما كانت هذه الكارثة التي ابتلينا بها حادثةً مفاجأة، بل الذي اقتضاه قانون الفطرة ألا نحيا الا تحت نير عبودية أمة من أمم أوربة الراقية.

* * *

أسس الثقافة الغربية

ولننظر الآن الى الأمة التي استولت علينا وخبطتنا بعصا قهرها وظللنا نرزح تحت نير عبوديتها مدة غير يسيرة من الزمن، مـاذا كانت تحمل من الآراء والأفكار؟ وماذا كان من نظرياتها؟ وماذا كان من دينهـا وفلسفتها؟ وماذا كان من مبادئها الخلقية؟ وماذا كان من مظاهرهـا الثقافية والعمرانية؟ وعلى أي أسس قامت سياستها؟ ثم كيف اثرت فينا هذه الامور كلها والى أي حد امتد هذا التأثير؟

الدين: ان القرون التي كنا منحدرين فيها في انحطاطنا المتتابـع، كانت بلاد اوربة اثناءها تتحضر وتحاول الاستواء على سوقها معتمدة على حركة جديدة من البعث (Renaissance). وقـد اصطدمت هذه الحركة، منذ نعومة اظفارها، بالدين المسيحي في العصور الوسطى، ولم ينته هذا الاصطدام إلا بنتيجة مؤلمة ماأهلكت بلاد اوربة وحدها، بل أهلكت الدنيا جميعاً. وتحرير الخبر ان المتكلمين المسيحيين القدمـاء كانوا قد أسسوا صرح عقائدهم الدينية وتصور الانجيل للكون والانسان على نظريات الفلسفة والعلوم اليونانيين وبراهينها ومعلوماتها، وكانوا يظنون أنه اذا أصاب أساساً من هذه الأسس نوع من الخلل فلا بد ان ينهارالصرح كله، وان يقضي معه على الدين نفسه. فما كانوا ليتحملوا نقداً او بحثاً يزعزع بنيان شيء من مسلمات فلسفة اليونان وعلومها، أو تفكيراً فلسفياً

يأتي بفكرة أخرى لا صلة لها بهذه المسلمات ، وتدعو رجال الكنيسة الى اعادة النظر في علم كلامهم . وكذلك ما كانوا ليسمحوا بتحقيق علمي يظهر به خطأ جزء مما جاء به الانجيل واعتقده المتكلمون في باب حقيقة هذا الكون ومنزلة الانسان فيه . فكانوا يرون كل شيء من هذا الباب خطراً مباشراً على الدين وعلى كل ما بني على قواعده من نظام للمدنية والسياسة والاقتصاد . وعلى العكس من ذلك كله ، كان العاكفون على اعمال النقد والاختراع ، متأثرين بالنهضة الفكرية الجديدة وعواملها المحركة ، كان يتراءى لهم عند كل خطوة ما كان في هذه الفلسفة وتلك العلوم - التي كان هذا النظام العتيق للعقائد والكلام قائماً على أسسها - من مواطن الضعف والوهن . ولكنهم كانوا كلما ازدادوا تقدماً في هذا المضمار ، مضمار التحقيق والنقد ، قاومهم وألقى العراقيل في سبيلهم رجال الكنيسة بمزيد من القوة والشدة مستخدمين كل ما كان بيدهم من النفوذ السياسي والديني. ولقد كانت تتجلى لهم امور تخالف الحقائق الثابتة المعتقدة في الزمن الغابر كالشمس في رابعة النهار ، ولكن أبى رجال الكنيسة أن يعيدوا النظر في ما اعتقدوه من آرائهم وأفكارهم كالقضايا المسلمة وجحدوا بالحقائق النيرة الواضحة جحود الأعمى لضوء الشمس في رابعة النهار . وكذلك كان يتبين للاذهان التفكك والوهن في كثير من النظريات التي كانت في الزمن الغابر تعد براهين ساطعة على بعض عقائدهم ، ولكن أهل الكنيسة كان قولهم في ذلك أن تحطم تلك الرؤوس التي تتفكر في مثل هذه البراهين بدلاً من ان يراجعوا عقائدهم وينظروا في تلك البراهين نظرة التأمل والتدبر .

فأول ما أفضى اليه هذا النزاع أن نشأ في الاوساط التي تأثرت باليقظة العلمية الجديدة نوع من العداء للدين ورجاله من أول يومها . وكلما ازداد

اضطهاد رجال الدين وتضييقهم ، ازداد هذا العداء نمواً وانتشاراً ، ثم ان هذا العداء لم يقف عند الديانة المسيحية و كنيستها فقط ، بل اصبح الدين ذاته هدفاً لعدائهم وغرضاً لنفورهم ، وصار من الفكرة السائدة ، عند حملة العلوم الجديدة ورافعي لواء المدنية الحديثة ، أن الدين في حد ذاته ، إن هو إلا نوع من الدجل والتزوير ، وليس في وسعه أن يثبت امام ضربة من ضربات الاختبار العقلي ، وإنما بنيت عقائده على الاذعان الاعمى والخضوع المحض من دون حجة ولا برهان ، وإنما يخاف على نفسه ازدياد نور العلم واتساع رقعة المعرفة حتى لا يفتضح أمره وتتضح للناس حقيقته.

ولما اتسعت دائرة هذا النزاع بعدما تجاوزت ميدان العلم ودخلت حقول السياسة والاقتصاد والنظام الاجتماعي ، وارتفع بقيادة حاملي لواء المدنية الجديدة صرح لنظام الحياة الجديد بعد سقوط الكنيسة وانكسارها المبرم ، نتج عن كل ذلك أمران جديدان أثّر أبلغ تأثير في التاريخ الانساني في العصور المستقبلة قاطبة :

١ — أنهم عزلوا الدين فعلاً عن كل شعبة من شعب نظام الحياة الجديد وضيقوه في نطاق العقيدة الشخصية والأعمال الفردية ، وجعلوا من المبادىء الأساسية للمدنية الحديثة ان لا حق للدين في التعرض للسياسة او الاقتصاد او الأخلاق أو القانون أو العلوم والفنون والمعارف أو ما اليها من شعب الحياة الاجتماعية الأخرى ، وإنما هو شأن من الشؤون الفردية فحسب ، فإن شاء الفرد ، اعتقد بالله وآمن به وبرسله واقتدى بهداهم في حياته الشخصية ؛ وأما الحياة الاجتماعية ، فلا يوضع ولا يُسيَّر نظامها إلا بصرف النظر — صرفاً تاماً — عن الدين وتعاليمه .

٢ أنه تغلغلت في عروق المدنية الجديدة عقلية الالحاد والتحلل عن قيود الدين ، وكل ما حصل من الارتقاء في العلوم والفنون والآداب قد وجد وما زال موجوداً في أصله ذلك العداء الذي تولد في بدء اليقظة العلمية للدين ولكل ما يتعلق به . فالحضارة التي رضعت بلبان مثل هذه الفكرة الخاطئة جعلت من وجهة الناس للتفكير ان كل شيء يأتي به الدين ، سواء أكان اعتقاداً بالله واليوم الآخر والوحي والرسالة او مبدأ من المبادىء الخلقية والمعنوية ، فإنه عرضة للشك والارتياب ولا بد من شيء يثبت صحته ، وإلا فيجب الجحود به ونبذه نبذ النواة ، وبالعكس من ذلك كل ما يأتي من اساتذة العلوم والفنون الدنيوية الحديثة ، فهو جدير بالقبول والاستحسان والتسليم ، إلا ان يأتينا شيء يفنده ويثبت خطأه . وقد أثر هذا الطراز الجديد للتخيل والتفكر تأثيراً بالغاً شاملاً في نظام الفكر والدراسة والبحث في البلاد الغربية ، وهو لم يحرف عن الوجهة الدينية العلومَ والآدابَ والفنونَ وحدها . بل نرى ان كل ما بني على أساس هذا النظام الفكري الجديد من فلسفات ونظم للحياة الاجتماعية ، لا مسحة عليها لتصور العبودية لله وفكرة الحياة الأخروية .

فلسفة الحياة : هذا ما كان للثقافة الغالبة من الوجهة في باب الدين وعقائده . فانظروا الآن ما كان لهذه الثقافة من فلسفة للحياة اختارتها بعد إفلاتها من قيود الدين .

فهي فلسفة مادية بحتة . ما كان زعماء الفكر في الغرب ليؤمنوا بحقيقة غيبية وراء المحسوسات ، ولا كان من الممكن ان يكون لهم وسيلة الى معرفة الحقائق الغيبية وإدراكها حق الادراك إلا الوحي والالهام — وكانوا من الجاحدين بهما — وكانت الروح العلمية الجديدة تمنعهم ان يحدثوا بانفسهم

بناء تصور عن الحقائق الغيبية على مجرد القياس والتخمين ، بل إنهم كلما حاولوا ذلك لم يتماسك بنيانهم الذي بنوا في وجه النقد العلمي فلما لم يتجاوزوا حدود الشك واللاأدرية في باب الحقائق الغيبية ، ما وجدوا امامهم سبيلا لمعرفة حقيقة الدنيا وحياتها الا التعويل على الحواس ، مما جعل فلسفتهم عن الحياة فلسفة سطحية بحتة . فقد زعموا ان الانسان إن هو إلا نوع من البهيمة قد وجد على ظهر الارض ، فما هو بمنقاد لأحد ولا متبع له ولا مسؤول امامه وهو لا يتلقى الهداية من فوقه . فعليه ان يتلقى هذه الهداية بنفسه ؛ وإن كان لهذه الهداية من مصدر ، فانما هو القوانين الطبعية او معلومات الحياة البهيمية او تجارب التاريخ الانساني الفارط . وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نحيا ونموت ، فالفوز بنعيم هذه الدنيا والحصول على رفاهيتها هما عين المقصود من جهود الانسان ؛ ولا تتوقف سعادته او شقاؤه إلا على نتائجها الحسنة او السيئة . وقالوا إنما تنحصر الحقيقة في الاشياء التي تقع تحت الحس أو الوزن أو الكيل او القياس ، فكل شيء لا يكون من هذا النوع ، لا حقيقة له ولا قيمة .

ولست هنا بصدد أن أذكر لكم تلك النظم الفلسفية التي اخترعت في الغرب ، ودونت في الكتب ، ومازالت دروسها تلقى في الجامعات ؛ وإنما أنا ذاكر لكم ذلك التصور للحياة الذي أقبلت عليه الثقافة الغربية ونمت وترعرعت على أصوله ، والذي رسخ في اذهان عامة أهل الغرب ومن تأثر بثقافتهم ومدنيتهم من أهل الأرض . فخلاصته ماقد ذكرت لكم آنفاً .

وكذلك نشأت وترعرعت في الغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر - أي عندما كانت شعوب أوربة المختلفة مشتغلة باستعبادنا — ثلاث

نظريات فلسفية مهمة أخرى، واستولت – بروحها إذا صرفنا النظر عن تفاصيلها – على الثقافة والحضارة الأوربيه قاطبة . وسأخص هذه النظريات الثلاث بالذكر في هذا المقام ، فانها أثرت في الحيـــاة البشرية تأثيراً بالغاً شاملًا لعله لم يؤثر مثلها نظرية فلسفية أخرى .

هيجل وفلسفته التاريخية :

فالنظرية الأولى هي التي عرضها هيجل بصددالتعبير عن التاريخ البشري . وخلاصتها أن كل نظام للثقافة في عصر من عصور التاريخ إنما يكون مبناه، بجميع شعبه وصوره . على أخيلة خاصة تجعله في العالم عصراً للثقافة والمدنية . فاذا أدرك هـــذا العصر بدأت تظهر للعيون مواضع الضعف ومواطن الانحلال والتداعي في بنيانه ، فهناك تتنفس وترفع الرأس أخيلة وأفكار جديـدة اخرى تصارعه ، فـلا تنتهي هذه المصارعة إلا بعصر جديـد من الحضارة والمدنية يكون فيه بقايا من الانقاض الصالحة للعصر المنقرض ، كما تتولد فيه حسنات ومحامد جديدة بحكم تأثير الأفكار الغالبـة التي أغارت على عصر الثقافة المنقرض وأرغمته على المسالمة . ثم إذا اينع هذا العصر ايضاً وادركت ثماره ، تتولد منه طائفة اخرى من الافكار المخالفة ويحمى وطيس الحرب والنزاع بينها وبين هذا العصر، حتى يتكون بمصالحتهما عصر ثالث للحضارة والثقافة فيه البقايا الصالحة للعصر السالف، ولكن تنجذب اليه محاسن جديدة اخرى تأتي بها الافكار الجديدة .

فهذا التفسير لرقي الثقافة البشرية الذي جاء به هيجل قد ادركت منه العقول عامة أنه لم ينقرض عصر من عصور التاريخ الماضية إلا لأجل ما كان يتضمنه في نفسه من النقائص والعيوب ومواطن الضعف والتزعزع ، وقد

ترك ما كان فيه من المحاسن في العصر التهذيبي الذي أتى بعده ؛ وبكلمة أخرى ان العصر التهذيبي الذي نجتازه الآن ، هو خلاصة جميع ما كان في العصور الماضية من عناصر الصلاح . فان كان في وجهنا اليوم سعة المرقي ، فانما هي في الافكار الجديدة التي رفعت رأسها لمصارعة الأفكار الأساسية لهذا العصر الثقافي ، فمالنا في العصور المنصرفة شيء نلتفت اليوم الى الوراء مستهدين منه ومسترشدين إياه في نواحي حياتنا ، فان أجزاءه التي لم تنضم الى عصور الثقافة التي جاءت بعده قد رفضها التاريخ الانساني ، ونبذها وراء ظهره بعد اختبارها واستنقاصها . فان كان ذوقنا التاريخي اليوم يجل قدر شيء منها ويعرف له قيمته ، فمن حيث أنه كان شيئاً ذا قيمة في حينه وأدى واجبه للانسانية والارتقاء بحضارتها ، ولكنه لم يعد في هذا العصر الجديد شيئاً يستحق القدر أو ان يكون مطمحاً لأنظارنا ، فان التاريخ قد حكم عليه بما حكم من قبل .

وانظروا ما أضل هذه الفلسفة وما أشد خطرها في حقيقة الامر . فهل ترجون ممن يكون قد رسخ في ذهنه مثل هذا التصور للتاريخ الانساني ، أن تبقى في قلبه أثارة من القدر والاجلال للعصور الثقافية التي مضى فيها إبراهيم وموسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين وغيرهم من رسل الله وأنبيائه الأجلاء الاكرمين ؟ فهل يرجع مستهدياً الى عهد النبوة والخلافة الراشدة؟ والحق إن هذه الفلسفة هي حملة فكرية منظمة مدججة بالبراهين والحجج تكاد تأتي الفكرة الدينيـــة من أساسها اذا أصيبت فكرة رجل بضربتها الفتاكة .

داروِن ونظريته في التطور الانساني :

والفلسفة الثانية التي ظهرت واستولت على أذهـان الناس وعقولهم في

القرن التاسع عشر ، أحدثتها نظرية التطور لداروين . واني لا أتناول بالبحث في هذا المقام وجهتها الحيوية (Biological) وانما أتناول بالبحث آثارها الفلسفية التي جاءت من طريق استدلال داروين ونتائجه المستنبطة ثم انجذبت الى الفكرة الاجتماعية الواسعة . فالتصور الذي تأصل في الذهن الانساني عامةً للكون ، متأثراً بنظرية التطور ، أنه مضمار للمصارعة ، والمنازعة ، ولا تزال الحرب قائمة فيه في سبيل الحياة والبقاء ، ومن نظام الفطرة ان كل من أراد الحياة والبقاء ، فعليه بالكفاح والمصارعة. وكذلك من طبيعة الفطرة أنه لا يستحق البقاء في نظرها إلا من أثبت قوته ، فكل من يفنى في هذا النظام القاسي ، فانما يفنى لأنه ضعيف وهو يستحق الفناء ، ومن يبقى فانما يبقى لأنه قوي من حقه البقاء . فالارض وما فيها ووسائل الحياة بها ، لا يستحقها إلا القوي الذي يثبت أهلية للبقاء والحياة ، ولا حق للضعيف في هذه الاشياء ، وعليه ان يخلي المكان للقوي ، والقوي على الحق تماماً اذا أخذ مكان الضعيف بعد إزاحته عنه او قضائه عليه .

تأملوا قليلاً أنه اذا رسخ هذا التصور الخاطىء للكون في اذهان الناس وعقولهم ونظروا الى نظام الفطرة بهذه النظرة فماذا تكون علاقة الانسان بانسان مثله ؟ وماذا يمكن ان يكون في هذه الفلسفة للحياة من قيمة لاغراض سامية وعواطف شريفة كالمواساة والتودد والمرحمة والايثار ؟ أفتجدون عليها مسحة من العدل والامانة والعفاف والصدق والاخلاص ؟ أفترون فيها من بقية لمدلول كلمة « الحق » الذي قد يناله الضعيف ولمدلول كلمة « الظلم » الذي قد يحكم لأجله على القوى بالاثم والعقوبة . ولا شك ان الانسان ما زال يتحارب منذ اول عهده بهذه الدنيا ، ولكن كانت فعلته هذه تسمى بالفساد والعدوان والبغي ، وقد أصبحت الآن من صميم

ما تستدعيه الفطرة ، لأن الكون ان هو إلا مضمار للمصارعة بحكم هـذه النظرية . والظلم ما كان شيئاً لا وجود له في أي زمن من الازمان، ولكنه كان ظلماً ، وقد ظفر الآن بمنطق جعله حقاً مشروعاً للقوي . فقد جعلت هذه الفلسفة في ايدي رجال اوربة حجة قوية سوغت لهم كل ما أذاقوا أمم الارض المستضعفة من ضروب الظلم والعدوان ، فان كانوا استأصلوا شأفة الشعوب القديمة والسلالات المتوغلة في القدم في امريكة واستراليا وافريقية واستعبدوا الامم الضعيفة ، فلأنه كان كل ذلـــك من حقهم الذي نالوه بموجب قانون الفطرة نفسه . والذين انقرضوا ، كانوا يستحقون ذلك . ولعمر الحق لو كان بقي في ضمائر اهل الغرب شيء يخالج ضمائرهم ، فقد أزاله داروين بحججه وشواهده . ومهما يكن لهـذه النظرية من منزلة في العلوم الطبيعية ، فقد حولت الانسان ذئباً مفترساً لاخيه في ميادين الاجتماع والمدنية والسياســـة .

تفسير ماركس المادي للتاريخ :

ومن نوع هذه الفلسفة كانت فلسفـة أخرى تولدت من بطن « تفسير ماركس المادي للتاريخ » واني لا أتناول هنا بالبحث تفاصيل هـــذه الفلسفة ودلائلها ، ولا انتقد عليها مكانتها العلمية ، وانما أريد ان أبين لكم ان هذه الفلسفة ما زودت ذهن الانسان إلا بنفس ما زوده به هيجل اولاً وداروين بعده من تصور للحياة الدنيا ، فقد جعل هيجل العـالم الفكري ميداناً للصراع ، وجاء داروين وقدم نظام الفطرة كميدان للحرب ، ثم جاء بعدهما ماركس وصور المجتمع البشري بنفس هذه الصورة . فالذي يتراءى لنا في هذه الصورة ان الانسان ما زال محارباً منذ اول امره

لأغراضه ومصالحه الشخصية وأنه ما انقسم الى مختلف الشعوب والقبائل والطبقات إلا لأجل ما في نفسه من اثرة وحب لذاته ، وما نشب ما نشب بين هذه الطبقات والشعوب المختلفة من الحروب والمنازعات إلا لأجل هذه الاثرة والاغراض الذاتية ، وما رزق التاريخ الانساني ما رزق من نمو وارتقاء إلا بفضل هذه المصارعة الطبقية المترتبة على الاثرة وحب الانسان لذاته . وكذلك يخيل لنا من هذه الصورة ان كل ما يحدث بين طبقات أمة واحدة - فضلاً عن مختلف الأمم والشعوب - من المحاربة ، انما هو من عين ما تتطلبه الفطرة الانسانية . وكذلك يظهر لنا في هذه الصورة انه اذا كان بين الانسان والانسان علاقة ما ، فانما هي علاقة اشتراكهما في الاغراض والمصالح ، واتصال المرء بأقاربه وحربه معهم للذين تتصادم اغراضه واغراضهم الاقتصادية ولو كانوا من ابناء أمته ودينه، من صميم الحق والصواب ، بل كان اجتناب الانسان ركوب هذه الفعلة - وعدم اتيانه اياها - مخالفاً للفطرة .

الاخلاق : فتلك هي الفلسفات والعقائد والافكار التي رافقت الثقافة الغالبة واستولت علينا . فانظروا الآن ما جاءنا به هؤلاء الواردون من النظريات والمظاهر العملية في باب الاخلاق والمعنويات .

من الظاهر ان الاخلاق لا تبقى لها قيمة غير القيم المادية ولا أساس غير الأسس التجريبية اذا نبذ الايمان بالله واليوم الآخر وراء الظهور . واذا أراد احد في هذا الباب ان تبقى القيم التي جاء بها الدين ، قائمة على اساس غير اساس الدين أو تبقى المبادىء الخلقية التي تعلّمها الانسان من تعاليم الانبياء والرسل تسير في الحياة البشرية مستندة الى شيء غير « الايمان » ، فلا يمكن ذلك ابداً ، ومن ثم قد باء بالفشل كل من حاول ذلك من اهل

الغرب . فالفلسفة الخلقية التي ازدهرت في جو من الانحلال الديني وجحود الآخرة وراجت رواجها في حقيقة الامر في حياة اهل الغرب فعلاً ، انما كانت فلسفة النفعية (Utilitarism) المحضة التي امتزجت بها نزعة مادية ساذجة من فلسفة اللذة (Boicurianism) . فعلى هذه الفلسفة اسس بناء المدنية والحضارة في الغرب . ومها أبدع القوم وأعادوا في شرح النفعية وفلسفة اللذة في كتبهم ، فان جوهرها الذي انجذب الى حضارة الغرب وسيرته وأوضاعه العملية ، هو انه ان كان فى الدنيا شيء يستحق القدر ، فانما هو ما يعود بالنفع الى « نفسي » او الى « وطني وشعبي » اذا وسع قليلاً في تصور « نفسي » . والمراد بهذا النفع ـ نفع دنيوي ـ لذة من اللذات او منفعة من المنافع المادية . فكل شيء يرجع منه الى نفسي اوالى وطني وشعبي نفع مادي يقع تحت الحس أو الوزن أو الكيل ، فلا يستحق أن يقام له أي وزن ويلتفت اليه . وبالعكس من كل ذلك كل ما كان مضراً من الوجهة الدنيوية او كان مما يحرم الانسان من المنافع واللذات العاجلة ، فهو الشر وهو الاثم الذي يجب اجتنابه .

فهذه الاخلاق ليس فيها مقياس مستقل للخير والشر ، وليس فيه لحسن الأعمال وقبحها مبدأ قائم بذاته . فكل شيء فيها موقت نسبيّ ، ويمكن ان يوضع وينقض فيها كل مبدأ في سبيل المنفعة الذاتية أوالقومية ، ويجوز فيها التشبث بكل ذريعة مهما بلغت من الشر للحصول على الغاية ، ويسوغ فيها الظفر بالمنافع واللذات بأي طريق من الطرق ، فالذي هو الخير اليوم قد ينقلب الى الشر غداً والذي هو الشر اليوم قد يتحول الى الخير غداً ، ويختلف فيها معيار الحق والباطل باختلاف الافراد . ومن التصور البالي الذي أكل عليه الدهر وشرب وجعلته مواكب الرقي من بقـــايا الجمود

والرجعية أن يكون عند الانسان تميز مستقل بين الحلال والحرام يراعيه في كل حال ، او فارق أبدي بين الحق والباطل لا يتغير في أي حال من الاحوال .

السياسة : فهذه هي الاوضاع الخلقية التي دخلت في بلادنا واسترهبتنا واستولت علينا . فلنتناول الآن ذلك النظام السياسي الذي أقيم في بلادنا وشب وترعرع تحت اشراف سادتنا الغربيين وزعامتهم . فقد أسس بنيان هذا النظام على مبادىء ثلاثة : اللادينية (Secularism) والقومية (Nationalism) والديمقراطية (Damocracy) .

والمراد بالمبدإ الاول أن لا علاقة للدين ولا لا لهه ولا لتعاليمه بشؤون الانسان السياسية والاجتماعية ، فلا يرجع الأمر في شؤون الدنيا ومعاملاتها كلها إلا الى الناس انفسهم ، يسيرونها على مشيئتهم وهم الذين يضعون لتسييرها المبادىء والقوانين والنظريات والمناهج ، ولا حق لله ان يتدخل في هذه الشؤون ولا حاجة بنا الى ان نسأله عما يحبه أو لا يحبه . غير انه اذا جد بنا الامر وأصبنا بمصيبة عظيمة ، فلا ينافي « اللادينية » ان ندعو الله ونستغيثه ، ويجب على الله في مثل هذه الحال ان يأخذ بيدنا ويكشف عنا هذه المصيبة .

والمراد بالمبدإ الثاني ان يُحَلَّ الشعبُ منزلة الألوهية التي قد زُحزح عنها الله ، ويكون الشعب هو الاله ، ولا يكون للخير والشر من مقياس الا مصالح الشعب وحده ، ولا يكون المنشود والمقصود من وراء الجهود الا ترقية الشعب واعلاء كلمته ورفع شأنه وتسليطه على سائر أمم الارض وشعوبها . وكل تضحية يقوم بها الافراد في سبيل الشعب هي الجائزة لهم والواجبة عليهم . ثم ان نظرية القومية التي أوردها سادتنا الغربيون الى بلادنا ، كانت نظرية القومية الوطنية اللادينية التي اذا اختلط بها مبدأ

« القومية » اصبح ضغثاً على ابالة بحقنا على الاقل ، لأن بلادنا الهندية كانت ثلاثة ارباع من سكانها من غير المسلمين ، فقد جعلنا مبدأ «القومية» على اساس « الوطنية » بين امرين : اما ان نرتد على اعقابنا عن ديننا الاسلام متحمسين لديانتنا الجديدة أو نعيش في البلاد كافرين اي خارجين على الوطن بموجب ديانة القومية الوطنية .

والمراد بالمبدإ الثالث ان المحل الذي أبعد عنه الدين في الدولة القومية ، يجب ان يمكن منه جمهور الامة اي رأي اغلبيتهم . فكل ما حكم عليه الرأي العام في البلاد بالحق ، بصرف النظر عن الدين ، فهو الحق ، وما حكم عليه بالباطل ، فهو الباطل . فلا تدين الامة الا بما تضعه اغلبية السكان من المبادىء والقوانين والضوابط ، ولا يحل الا لاغلبية السكان ان تغير وتبدل في هذا الدين .

* * *

آثار الثقافة الحاكمة

فتلك هي السياسة والاخلاق والفلسفات والنظريات في الدين ، للذين جاؤوا من الخارج واستولوا علينا في مرحلة نحسة من مراحل تاريخنا. وقد عرفتم من قبل ما كنا وقعنا فيه اذ ذاك من مواطن الضعف ، وقدفصلت لكم آنفاً الثقافة التي جاء بها الينا هؤلاء الفاتحون . والظاهر ان هذه الثقافة ما جاءتنا بحيث قد جاءت بها طائفة من السائحين وابناء السبيل ، بل الذين جاؤوا بها كانوا حاكمين لبلادنا ومتصرفين في حياتها تصرفاً لم يكتب مثله لحكومة من الحكومات قبلهم ، واستولى لهم على قلوب اهلها رعب - مادياً ومعنوياً - لعله لم يستول مثله على قلوبهم لطائفة من الطوائف الحاكمة قبلهم ، وكانت بايديهم الوسائل الواسعة للنشر والدعاية والتعليم والآلات النافعة كالقانون والقضاء وكان نفوذهم السياسي في الوقت نفسه قد وضع يده على وسائل المعاش كلها وشد عليها القبض وأحكمه . فلأجل كل ذلك قد أثرت فينا ثقافتهم تأثيراً شاملاً محيطاً لم تسلم من بطشه شعبة من شعب حياتنا .

تأثير التعليم الغربي : فقد فرضوا علينا تعليمهم ، بل استولوا على مفاتيح الرزق وعلقوها على ابواب معاهدهم ، مما كان معناه أنه لن ينال الرزق في البلاد الا من يتلقى هذا التعليم . فأقبلت على معاهدهم ، تحت

هذا الضغط الاقتصادي ناشئتنا إقبالاً هائلا ، حتى لقـــد كانت كل سلالة جديدة منا اسرع اليها من سابقتها ، وتعلمت فيها جميع النظريات والمظاهر العملية التي كانت بروحها وشكلها مناقضة لثقافتنا . ولا شك انهم ما استطاعوا ان يردوا منا احداً على عقبه كافراً يجهر بارتداده عن الاسلام ، ولكن لا اخال انهم تركوا حتى اثنـين من مائة رجل منا على اسلامهما الخالص من حيث الفكرة والنظر والوجدان والذوق والسيرة والاخلاق والاعمال . فهذا هو الضرر الفادح الذي قد ألحقوه بنا ؛ فقـــد نسفوا جذور ثقافتنا في قلوبنا وأذهاننـــا وغرسوا فيها واصلوا جذور الثقافات الاجنبية الاخرى .

تأثير النظام الاقتصادي : وكذلك فرضوا علينا نظامهم الاقتصادي مع فلسفتهم ونظرياتهم الاقتصادية ، حتى لم تعد ابواب الرزق لتفتح الا لمن يختار مبادىء هذا النظام الاقتصادي . فهذا ما جعلنا آكلين للسحت اولاً ، ثم محا من اذهاننا ما كان فيها من تمييز بين الحلال والحرام حتى بلغ بنا الامر الى انه لم يعد كثير منا يسلمون بتعاليم الاسلام التي حرَّم فيها كثيراً من الطرق التي أحلها نظام الغرب الاقتصادي .

تأثير القانون : وكذلك فرضوا علينا قوانينهم ، ولم يبدلوا بها صورة نظامنا الاجتماعي والمدني فعلا فحسب ، بل جاؤوا بتغيرات هائلة في تصوراتنا الاجتماعية ونظرياتنا القانونية ايضاً . فكل من له أدنى معرفة بالقانون ، يعلم ان القانون له صلة وثيقة باخلاق النـاس ومجتمعهم . فاذا وضع الانسان قانوناً من القوانين ، فلابد ان تكون وراءه فلسفة من فلسفات الاخلاق والاجتماع والمدنية ، وان يكون نصب عينه صورة

خاصة يريد ان يفرغ في قالبها الحياة الانسانية قاطبة . وكذلك اذا نسخ الانسان قانوناً من القوانين ، فكأنه نسخ النظرية الخلقية والفلسفة المدنية التي كان ذلك القانون مستنداً اليها ، وبدل صورة الحياة التي كانت مستمدة من ذلك القانون . فلما نسخ حكامنا الانكليز ما كان رائجاً جارياً في بلادنا من القوانين الشرعية ونفذوا مكانها قوانينهم الجديدة ، فلم يكن معنى ذلك انه مضى قانون وحل محله قانون آخر فحسب ، بل كان معنى ذلك انه قد اقتلع من ارض هذه البلاد نظام للاخلاق والمدنية وأسس مكانه نظام آخر للاخلاق والمدنية . ثم اجرى الانكليز في كليات حقوقهم تعليمهم القانوني ليحكموا هذا التغير الذي جاؤوا به في الاخلاق والمدنية . فذلك التعليم هو الذي خيّل الى الشبان وألقى في روعهم ان القانون الفارط كان قانوناً بالياً أكل عليه الدهر وشرب لا يمكن ان يساير مجتمعاً في الزمن الحاضر ، وأن هذا الطراز الجديدلوضع القانون،بكل ما فيه من المبادىء والنظريات ، هو أصوب منه واكثر ملاءمة لعهد الرقي الجديد . ثم لم يقف الامر عند هذا الحد فحسب ، بل قدزعزع الانكليزعقيدتنا الاساسية القائلة بأن حق التشريع مختص بالله وحده ، وألقوا في روع الناس ان لا علاقة لله بهذا الشأن ، بل الامر كله يرجع الى المجلس التشريعي، يجعل ما يشاء فرضاً او واجباً او حلالاً أو حراماً أو جريمة . وحسبكم شاهداً على مبلغ تأثير هذه القوانين الجديدة في اخلاقنا ومدنيتنا انها هي التي أحلت الزنا والخمر والميسر وكثيراً من البيوع الفاسدة ، وراجت تحت كنفها انواع من المنكرات والمعاصي في هذه البلاد ، وحرمت حمايتها وظلت تنقرض وتمحى كثير من الخيرات والحسنات التي بقي لهـا باقية ما الى عصر انحطاطنا . الا أن الاحوال كأنها فلّت من حد شعورنا الديني ، حتى

لم يعد كثير من اتقيائنا وصلحائنا يرون بأساً في أن يتولى فرد من افراد المسلمين منصب القضاء او المحاماة في هذا النظام القانوني الجديد ، بل آل بهم الامر الى ان حكموا بالخارجية على من دعا الناس الى مبدإ «الحكم لله» واراد ان يحيى هذا المبدأ في اذهانهم .

تأثير الاخلاق والاجتماع : وكذلك فرضوا علينا مفاسدهم الخلقية واطوارهم الاجتماعية ، بحيث ظل مقام التقرب اليهم وشرف التقدم لديهم خالصاً للذين كانوا مثلهم في الاخلاق ، واصطبغوا بصبغتهم في العشرة ، وقد كان هذا التقرب اليهم ونيل الحظوة عندهم هو الضامن للناس بالنفوذ والرفاه الاقتصادي والرقي المادي . فتدرجت طبقاتنا العليا وعلى اثرها طبقاتنا الوسطى ، تصطبغ بصبغتهم ، وأخيراً أخذت الصور الخليعة ودور السينما والاذاعة والمثل الحية من كبار الناس ورؤسائهم تشيع هذه الفاحشة في العامة والدهماء . وكان من نتيجة كل ذلك ان تدرج بنا الامر في قرن واحد الى أن بدأنا نتحمل التعليم المختلط بين الشبان والفتيات ولا نضيق به ذرعاً .

تأثير النظام السياسي : وكذلك فرضوا علينا نظرياتهم ونظمهم السياسية التي لم تكن لديننا ودنيانا اقل ضرراً من شيء آخر . فقد زعزعت نظريتهم اللادينية كياننا الديني وكادت تاتي تصوراتنا وعقائدنا الدينية من القواعد ، وما زلنا نوزح ، طوال قرن كامل ، تحت نظريتهم القومية والديمقراطية ، حتى لم نجد لانفسنا بداً من الاقتناع بأن ننقذ من شقي الرحى نصف امتنا ونضحي في سبيل انقاذها بمئات الالوف من نفوسنا واعراض عدد عظيم - لا يأتي عليه الاحصاء - من نسائنا . ولم يصرف هؤلاء الحمقى الغلاظ الاكباد ولا دقيقة واحدة من اوقاتهم ليتفكروا في

حال هذه البلاد ويعلموا أن هنادك الهند ومسلميها وسيكها ومنبوذيهـا لايمكن ان يؤلفوا جميعاً في هذه الارض شعباً واحـداً بالمعنى السياسي الجديد حتى يطبق عليه مبدأ الديموقراطية القائل بأن التشريع والحكم للاغلبية ، وعلى الاقلية ان تهيء الرأي العام وتنوره لنفسها حتى تتحول به الى اغلبية في البلاد . ولم يبذلوا أي جهد ليعلموا ان أغلبيات هـذه البلاد واقلياتها اغلبيات واقليات قومية وماهي باغلبيات واقليات سياسية والذي كانت ترجع اليهم المسؤوليـة عن حاضر ٣٥٠ مليون نسمة من البشر ومستقبلهم ، لم يصرفوا لحظـة من اوقاتهم ليدركوا أن لامعنى لاقامة النظام الديمقراطي اللاديني في بلاد الهند زعماً منهم ان جميع مافي هذا القطر من الامم انما تؤلف شعباً واحداً ، الا أن تقضي امة كثيرة كثيرة العدد منها بقهرها وعنفها على اديان سائر الامم وثقافاتها ومقوماتها القومية ، بل انهم مافتئوا يطبقون مبادئهم ونظرياتهم ومناهجهم العملية في بيئة كانت مختلفة عن بيئتهم كل الاختلاف .

وما زالت كل بقعة من بقاع ارض الهنـد تنبىء ، طوال السنين والاعوام بكل ما أخرجت من بطنها من سم التباغض ودماء المظلومين وضرام التطاحن الطبقي ، بأن هذا النظام الذي لايلائم فطرة أهل هذه البلاد ويفرض على سكانها قسراً ، نظام باطل خاطىء من اساسه ، ولكنهم لم ينتبهوا لذلك أصلا . وكان من نتيجة ذلك ان أصبح الجـيران بعضهم لبعض أعداء متباغضين ، ولكنهم لم يشعروا بأي حاجة الى اعادة النظر في خططهم المعوجة هذه. ثم لما بلغ الامر الى حيث لم يجدوا بداً من تقسيم البلاد غادروا البلاد بعد ان قسموها بطريق جعل انهار الدماء وجبال الجثث هي التخوم الماثلة بين الهند وباكستان . وبدل ان يكون هذا التقسيم صورةً للقضاء

في المشاكسات والمناوءات الماضية ، أصبح اساساً لمشاجرات جـــديدة كثيرة لايدري الا الله الى متى تشغل اهل هذه البلاد بعداوتهم وبغضائهم.

واني اعترف بأن هؤلاء الحـكام الاجانب قد جاؤوا باعمال نافعة في البلاد ،ولا انكر مالهم من يد في ترقية بلادنا المادية ، حيث قد استفدنا كثيراً من الجوانب النافعة لعلومهم الجديدة ، ولكن اين هذه المنافـع من تلك المضار الخلقية والمعنوية والمادية التي اصابتنا بسلطتهم وعلو كلمتهم والتي لايحصيها الا الله ؟

* * *

تجاوبنا مع الثقافة الغربية

هذا ، ولنا ان نستعرض الآن كيف وبأي صورة ظهر ماظهر عندنا من التجاوب لهجوم هذه الثقافة الغالبة ؟ وماذا يوجد اليوم في حياتنا القومية من آثاره الحسنة والسيئة ؟

فاذا تعرضنا للواقع بنظرة عمومية شاملة ، وجدنا ان تجاوبنا لهذه الثقافة ظهر بصورتين مختلفتين ترتبت ولا تزال تترتب على كل منهما آثار بعيدة . فاريد أن افصل كل واحدة منهما على حدة . ثم ابين لكم ماذا كان من تأثيرهما المشترك في المجتمع .

التجاوب الانفعالي : وكان تجاوب (reaction) ذلك عند طائفة منا ان قالوا خذوا من هذه الامة القوية الراقية كل ماتعطيكم وتأثروا بآثارها واقتنوا تعليمها وانجذبوا الى نظامها الاقتصادي واستسلموا لقوانينها واصطبغوا بنظامها الاجتماعي واذعنوا لنظامها السياسي .

وكان الاستسلام والخضوع طبيعة هذا التجاوب منذ أول أمره . غير ان الذي دفع بالناس اليه ان لاقبل لنا بالمقاومة بعد ماغلبنا على امرنا واستولى علينا غيرنا . فان حاولنا المقاومة ، بؤنا بالفشل والخسران من كل وجهة ، فلا بد لنا اذن ان نستفيد من كل فرصة من فرص الرقي

والحياة تسنح لنا في هذا النظام الجديد ، ولكن الذين تأثروا منا بهذا الدليل -- وهو دليل قوي في حد ذاته -- وسلكوا هذا الطريق بدأ يظهر في اول نسلهم من السيئات والمفاسد مالا بد ان تبتلى به كل امة تختار سلوك طريق الاستسلام والقبول والخضوع بازاء ثقافة معادية ، ثم تعاقبت السلالات وكانت كل سلالة متأخرة اكثر ابتلاء بهذه المفاسد من سابقتها ، حتى احاط هذا الداء بطبقتنا العليا والوسطى من كل جهة ، الا من رحم ربك ، وما زال سمه يسري الى جمهورنا اقتداء منهم بكبرائهم وتأسياً باسوتهم .

وقد قبلت الاغلبية العظيمة من متعلمينا الجدد بدون ادنى ارتياب ما كان لاهل الغرب من وجهة نظر في الدين . ولم يشعروا بان الغرب انما فهم مافهم عن الدين بنظره الى المسيحية و كنيستها لا بنظره الى الاسلام وكذلك تلقوا بالقبول والاستحسان ما كان نشأ في الغرب من وجهة للنظر والفكرة عن الدين والمسائل والشؤون المتعلقة به بعد ماحصل ماحصل من المصارعة بين الكنيسة والنهضة العلمية . وحسبوا ان الاسلام وكل شيء فيه مظنة لكل شك وارتياب . فان كنا في حاجة الى البرهان والدليل، فلاثبات امر من امور الدين لا لاثبات تلك النظريات والافكار التي يكون قد عرضها باسم العلم فيلسوف من الفلاسفة أو عالم من علماء الطبيعيات والعمرانيات في الغرب . وكذلك استسلموا استسلاماً كلياً لنظرية الغرب القائلة بأن ليس الدين الا شأناً من شؤون الناس الذاتية ، ولا ينبغي ان تكون له اي صلة بحياتهم الاجتماعية . ونزلت هذه النظرية منزلاً عجيباً من قلوب الطبقة المثقفة بالثقافة الغربية ، حتى نشاهد اليوم كثيراً من الذين يعيدون بالسنتهم الكلمة السائدة ان الاسلام نظام للحياة شامل

ويشيدون بها دائماً من غير فكرة ولا روية ، يشهد لنا كل عمل من اعمال حياتهم بأن ليس الاسلام الا ديناً شخصياً للافراد ولا حاجة لهم ان يسترشدوه في شؤونهم العامة ، بل لم يعد الاسلام لاكثرهم ولا ديناً شخصياً ، فان حياتهم الشخصية لانرى فيها – بعد الاقرار بالاسلام واداء بعض المراسم الوراثية كالختان وعقد الزواج – شيئاً ينم على اتباعهم للاسلام في الاخلاق والاعمال . والذين بقي أو نشأ فيهم من هؤلاء القوم ميل الى التدين ، فغاية ما كان من مظهره عندهم أن آمنوا بالغرب وفلسفاته ومظاهره العملية مقياساً للحق ثم بدؤا يعالجون الاسلام وعقائده ونظام حياته وتاريخه ، وحاولوا ان يبدلوا كل شيء منها حتى يسهل عليهم عرضه على الدنيا وفقاً لهذا المقياس ، وينفوا عن الاسلام كل ما تعذر عليهم تبديله أو يعتذروا إلى الدنيا عن وجوده في الاسلام ان لم يستطيعوا نفيه عنه .

وكذلك تلقى أكثرهم بالقبول ماجاء به الغرب من فلسفة للحياة واسس فلسفية للثقافة الغربية ولم يشعروا بحاجة الى انتقاء شيء منها . وما كل ذلك الا من لوازم التعليم الذي اخذوه منذ المدارج الابتدائية الى المراتب النهائية في مدارسهم وكلياتهم . ولا غرو فان الطراز الذي انتهجوه في دروسهم للتاريخ والفلسفة والاقتصاد والسياسة والقانون وما اليها من العلوم الاخرى ، ما كان لينشىء فيهم الا نفس الفكرة والعقلية التي كان عليها اساتذتهم الغربيون ، وكان من المستحيل ان تكون وجهة نظرهم الى الدنيا وحياتها الا التي كانت عند اهل الغرب . ولا شك انه لم يجهر بالكفر بالله واليوم الآخر الا قليل منهم . ولكن قل لي بالله كم من رجل بقي من الذين تأثروا بهذا التعليم واغترفوا منه لم تكن عنده عقلية مادية

محضة ولم تكن نظريته للحياة مستغنية عن الحياة الآخرة وحسابها وهو ينظر الى الحقائق المغيبة عن الرؤية والحس بشيء من الوثوق والطمأنينة ويقيم وزناً للقيم المعنوية فوق القيم المادية ، ولا يحسب الدنيا مضماراً للصراع الطاحن بين اغراض الناس البهيمية ؟

اما نتيجة هذا التجاوب الانفعالي في الاخلاق فكانت اسوأ منها في باب الدين . فقد كانت جذور اخلاقنا قد تزعزعت من قبل في عصر انحطاطنا وكان أمراؤنا وارباب الثروة والمال عندنا منغمسين في ترفهم وبذخهم ، وكان رجال طبقتنا الوسطى قد أصبحوا عبيد الدينار والدرهم يخدمون من يستأجرهم ويذودون عن حوض من ينفق عليهم ، وما كان بقي في مجتمعنا شيء ثابت يسمى بالوفاء للعهود والاخلاص للمبادىء ، ثم زادت الطين بلة فلسفة الغرب الخلقية هذه ، فبدأت تتولد فينا الاخلاق والطباع التي كانت مشتملة على كل ما كان في الطباع الغربية من الجوانب السيئة ، وبقيت خلواً من معظم حسناتها . ففي باب النفعية وطلب اللذة وعدم التقيد بالمبدأ نجد الطباع المتفرنجة عندنا على نحو ما عليه طباع اهل الغرب انفسهم ، مع الفرق بأن لهم غاية في الحياة يكافحون ويعانون الشدائد في سبيلها ، وأما الذين يقتفون أثرهم في مجتمعنا ، فلا غاية لهم في الحياة ولا مبدأ . وأولئك لا تخلو حياتهم من نوع من انواع الولاء لغاية والاخلاص لها ولا يمكن ان يساوموا عليه وأما الذين عندنا على غرارهم ، فكل شيء في الحياة عندهم أيًا ما كانت قيمته سلعة تباع وتشترى في سوق المطامع والشهوات . وعند أولئك الغربيين طائفة من المساوىء الخلقية لا يجوز أن يُعامل بها إلا الشعوب الاجنبية ويعد من الاثم العظيم ان يؤتى بها بازاء افراد الامة نفسها . وأما عندنا ، فلا ضير على المرء اذا تسلح بازاء ابناء

أمته باسلحة الكذب والمكر والخديعـة ونقض العهد والاثرة والمؤامرة والتخويف والاطماع . ولو أتى احد بمثل هـــذه الاخلاق في امريكا او بريطانية ، لتنغصت عليه الحياة . ولكن تنشأ وتزدهر عندنا جماعات كبيرة على اساس هذه الاخلاق ويُرَى في من يأتيها ويثبت مهارته فيها من رجالنا أنه أجدر من غيره بالزعامة القومية .

والذين اختاروا طريق هذا التجاوب الانفعالي من رجالنا ، هم الذين قبلوا وأشاعوا ـ ولا يزالون يقبلون ويشيعون ـ في القوم ما ذكرت لكم آنفاً من تأثيرات السلطة الغربية في الاجتماع والاقتصاد والقانون . غير أن الذي يدعو الى العجب اكثر من كل شيء هو تجاوب هؤلاء القوم لما أقام الانكليز في بلادهم من نظام سياسي جديد ، فهم معجبون مزهوون بمعرفتهم السياسية ، ولكن الحق أنهم قد أخفقوا في هذا الباب إخفاقاً لم يخفقوا مثله في شيء آخر ، لأن نظريات اللادينية والقومية والديمقراطية التي أسس عليها بناء النظام السياسي في الهند ، والتي ما زال يرتقي عليها هـذا النظام بعد النصف الآخر من القرن التاسع عشر ، اذ كان الهنادك قد قبلوها وآمنوا بها ، فانما كان ذلك امراً طبيعياً ، فان كل جزء منها كان نافعاً لهم ، ولكن المسلمين الذين كان كل جزء منها مضراً بهم مضعفا لكيانهم ، يشهد عدم مقاومتهم له وامتناعهم عن رفع عقيرتهم خلافه بأن رجالهم المتعلمين الجدد لم يفهموا السياسة ولم يدركوا مغزاها ولو بالغوا في درسها . كانوا معجبين بالغرب اعجاباً جعلهم يتلقون بالقبول كل ما كان يأتيهم منه كأنه وحي من السماء ، وما كانوا يتجرؤون على انتقاده . فبهذه العقلية المهزومة (Defeated) درسوا السياسة وظلوا يؤمنون بنظريات الغرب كلهـــا ايمانهم بالغيب . وما كان فيهم شيء من الذكاء يحملهم على اختبار أسس هذا

النظام السياسي الجديد ، ولا شيء من الجرأة يبعثهم على ان يتحدّوا هـذه الاسس من الوجهة العلمية ويقولوا لسادتهم ان مبادئكم هذه لا يمكن ان تتمشى في هذه البلاد . ولعمر الحق انهم كانوا خسروا نصف الحرب يوم آمنوا بمبادىء اللادينية والقومية والديمقراطية وسلموا بها تسليما . فما نجحت بعد ذلك سياستها القائمة على الحيلولة دون سير الرقي السياسي وانتقال مقاليد الحكم الى ايدي اهل البلاد . ولا افلحت خطتهم المبنية على ان يحصل المسلمون في هذا النظام السياسي الخاطيء من اساسه على طائفه من «التحفظات» تجعلهم في مأمن من آثاره المبيدة . ولكنه لما نضج هـذا النظام السياسي وبلغ أشده اخيراً ، ما وجدنا لانفسنا بداً من الاقتناع بأن يعيش بعضنا عيشة الاموات ويتخلص البعض الآخر من مخالبه ، ولكن لم يكن كل ذلك ليبصر زعماءنا السياسيين الى الآن بما في أسس النظـام السياسي الذي جعلنا على شفا حفرة من الهلاك من النقائص والمفاسد . فلا يزالون الى يومهم هذا عاضين بالنواجذ على هذا النظام وهو قائم عـــلى نفس الأسس والقواعد التي تركه عليها الانكليز ، ولا يكادون يدركون اي حاجة الى تغييره . فمن ذا الذي يقول الآن ، إلا من أصيب في عقله ، بأن دراسة السياسة وتجاربها قد نشأت في هؤلاء القوم شيئاً من البصيرة السياسية .

ومما لا مجال فيه للريب أن هذا التجاوب الانفعالي لم يكن كله ضرراً فحسب ، بل كان فيه بعض جوانب النفع ايضاً . فقد انقشع بذلك سحاب الجمود السابق وعرفنا به ماجاء به العصر الجديد من انواع الرقي والاختراع . وكذلك اتسعت آفاق معرفتنا وأصبحنا في مأمن من النتائج السيئة التي قد تكون اصابتنا لو انفرد غير المسلمين بتلقي التعليم الجديـد والنفوذ في ادارة الحكومة وتسيير شؤونها . وكذلك تدرب بفضله كثير من رجالنا

على تسيير مختلف شعب الحكومة ومعالجتها . فلست ممن ينكر شيئاً من هذه المنافع ، ولكن الواقع في الوقت نفسه انه قد تغير بهذا التجاوب الانفعالي تصورنا للدين والاخلاق وفلسفتنا للحياةوتبدلت قيمنا وتزعزعت اسس طباعنا الفردية وثقافتنا الاجتماعية وخرجنامن التقليدالاعمى لاسلافنا، ومنينا بمثله لغيرنا من الضالين المضلين ، مما أضر بنا ضرراً فادحاً وأهلكنا من الوجهة الدينية والدنيوية معاً .

التجاوب الجمودي : وكان تجاوب طائفة اخرى من المسلمين معالثقافة الغالبة على غير ما كان عليه عند الطائفة الاولى . فان كانت الطائفة الاولى قد انجرفت في تيار الثقافة الجديدة ، فقد كانت الطائفة الاخرىصخرة من الجمود في وجهه . فقد سعت هذه الطائفة سعيها للمحافظة على ما كان اهل القرن الثامن عشر تركوه وورثه عنهم اهل القرن التاسع عشر من اوضاع في العلم والدين والاخلاق والاجتماع والتقاليد أرادوا أن يستبقوا كلشيء منها بكل ما يحتوي عليه من اجزاء صالحة وغير صالحة ، وألا يقبلوا أي تأثير للثقافة الحديثة ، وألا يصرفوا وقتا فيفهمهاوالوقوفعلىحقيقتها. ولا تزال رجال هذه الطائفة الاخيرة حتى اليوم من المحافظة على القديم والضن بآثاره العتيقة على ما كانوا عليه يوم ضربتهم الثقافة الغربية بضربتها الاولى من غير ان يأتوا بتعديل او يعيدوا النظر فيسلوكهم. ولم يصرفوا لحظة من اوقاتهم بجد واهتمام في تحليل ما ورثوه عن الاقدمين معرفة ما يحسن الابقاء عليه وما يحتاج الى تغيير . وكذلك ما تفكروا اصلاً في معرفة ما يحسن أخذه أو ينبغي رفضه مما جاءت به الثقافة الغربية ، وما سعوا سعياً معقولاً ليعلموا ما كان في نظامهم القديم للذكر والعمل من المساوىء والاسقام التي فتت في عضدهم وأوجبت هزيمتهم ، وما عند أمة

اجنبية جاءتهم من وراء البحار من القوة العلمية والعملية التي مهدت لها السبيل وسببت لها الاستيلاء على بلادهم . فبدل ان يفكروا قليلا في مثل هذه الامور المهمة ويهتموا بها على الوجه الصحيح ، صرفوا ، ولا يزالون يصرفون الى اليوم ، جل همهم ومعظم قواهم في المحافظة على الاوضاع القديمة . فلا يزال نظامهم ومناهجهم للتعليم على ما كان عليه في اوائل القرن التاسع عشر ، وما دب ولا أدنى دبيب من التغيير في مشاغلهم ومسائلهم ووجهات نظرهم ومناهج علمهم وميزات اوساطهم بكل ما كان فيها من السيئات او الحسنات .

واني معترف بما كان ولا يزال في هذا التجاوب الجمودي من جوانب مهمة للنفع والافادة ، وفي القلب له مكانة يستحقها . فالحق انه ما بقي ما بقي عندنا من علم القرآن والسنة والفقه إلا لأجله . ومن حسناته التي لها قيمتها ان كان فينا رجال احتفظوا بما تركه اسلافنا من تراث في الدين والاخلاق وظلوا ينقلونه الى الاجيال المتعاقبة . ومن باب الخدمات الجليلة ان حافظت طائفة على ما كان لثقافتنا من الخصائص وظلت مستمسكة بها حسب طاقتها في الاحوال المعارضة القاسية .

وكذلك اعترف ان الذين بدأوا هذا التجاوب الجمودي في اول الامر ، كانوا معذورين الى حد عظيم في سلوكهم ، لأن قصارى ما كان في مكنتهم عند ما صدمهم سيل الثقافة الجديدة بصدمته القاسية ان يحافظوا على اكثر ما يقدرون المحافظة عليه من التراث القديم . وما اعذارهم في هذا الباب بأقل وزناً من اعذار الطائفة الاولى . فكما نعذر رجال الطائفة الاولى بأنهم ما كانوا ليتفكروا عند اول ماصدمهم سيل النفوذ الاجنبي إلا ان يختاروا الطريق الذي اختاروه انقاذاً لابناء امتهم من الدمار الكامل

واستحالتهم الى منبوذين ، كذلك من حق الزعماء الاول من هذه الطائفة أنهم صرفوا بالهم وأعملوا فكرهم في المحافظة على مشخصاتهم الدينية والاجتماعية . إلا ان هذه المعاذير والرخص مما لا يسمن ولا يغني من جوع في قانون الطبيعة ، ولا بد لكل عمل ان يصيب الانسان بضرره ان كان متضمناً في نفسه سبباً من اسبابه ، ولو بأي نية خالصة يكون الانسان قد قام به ، ثم لابد من الاعتراف بضرره في واقع الامر .

فالمضرة الاولى التي اصابتنا من جراء هذا التجاوب الجمودي . أن الجهود التي بذلت للمحافظة على الاوضاع القديمة ، احتفظت مع الدين وما يستحق القدر من الامور المتعلقة بـه ، بجميع النقائص والمساوىء التي كانت موجودة في تصوراتنا الدينية وطوائفنا الدينية في عصر الانحطاط. فهانحن أولاء قد ورثنا اليوم هذا التراث الممزوج بكل مافيه من حسنات أو سيئات ، وهو العقبة الكؤود في سبيل الانقلاب الاسلامي الصحيح شأن عقلية طبقتنا الجديدة ممن قد غرهم الغرب وبهر ابصارهم بريق ثقافته وحضارته .

والمضرة الثانية التي اصابتنا على يد هذا التجاوب الجمودي أنه ماحوفظ به على الجوهر الحقيقي لديننا واخلاقنا وثقافتنا على الوجه المرضي ، بل لم يزل هذا الجوهر ينحط يوما بعد يوم . ومن المعلوم انه لايقوم ويثبت في وجه التيار الا التيار ولا قبل بصده للصخرة الصماء . فما كانت في بلادنا قوة تقيم في وجه الثقافة الغربية تياراً من الثقافة الاسلامية ، وانما اقتنع رجالنا بالمحافظة على القديم ، وكان هـذا القديم مشتملاً على الصالح الذي يستحق القدر وغير الصالح الذي فقد قوة الحياة ولا يستحق ان يحافظ عليه ولا يرجى مع وجوده ان يبقى الاسلام عزيز الجانب بازاء ثقافة

اجنبية معادية . ومن أجل ذلك عندما ننظر في تاريخ بـــلادنا للستين أو السبعين سنة الماضية ، نشاهد الثقافة الاسلامية تتدرج في نكوص مستمر دون تقدم أو ارتقاء ، وما زالت تضمحل وتنكمش على طول الشهور والسنين ، وما انفكت الثقافة الغربية بازائها تنمو صعداً وتتقدم بخطوات واسعة ، فما طلع علينا يوم الا وكانت الثقافة الغربية وضلالاتها الفكرية واقذارها الخلقية وغواياتها العملية قد استولت فيه على رقعة جديدة من ميادين حياتنا ، وكان ديننا وأخلاقنا وثقافتنا قد باءت فيه بفشل جديد ، ولم يتمكن اصحابنا المحافظون على الطراز القديم من القيام في وجه هـذا السيل الجارف أصلاً .

والمضرة الثالثة لذلك ان المزيج - من الاسلام والتقاليد غير الاسلامية - الذي كانت تحافظ عليه طائفتنا الدينية ، لم يبق فيه من الوجهتـــين الفكرية والعملية الا نزر قليل مما يجذب اليه أهل الثراء وأصحاب الروية ، وما زالت رغبتهم فيه وانجذابهم اليه يقل يوماً فيوماً ، فكانت في جانب ، الثقافة المعادية تتقدم بادواتها الآخذة بالالباب المسخرة للأذهان الساحرة للعيون . وكان بالجانب الآخر ، الاسلام يمثل بمباحث ومسائل ومشاغل ومظاهر لم تكن لتقنع الاذهان والعقول وتؤثر في القلوب وتعجب الانظار فجعل كل ذلك من كان يملك الوسائل المادية والمواهب العقلية والفكرية يفقدون مابقي لهم من الشغف بالدين وينجذبون الى الثقافة الغربية ، حتى اصبح امر الدين والمحافظة على تراثه مختصاً بمن كانوا من الطبقة السفلى من حيث منزلتهم المادية والعلمية والاجتماعية . ومـا اقتصر ضرر ذلك على ان ظلت جبهة الدين تضعف وتضمحل ، وجبهة الثقافـة الغربية تتقوى وتستحكم ، بل لم يزل مقياس تمثيل الاسلام ينحط

يوماً فيوماً من حيث العلم والعقل واللغة والاخلاق ، الى أن اصبح من العسير المحافظة على كرامة الدين والتدين .

وآخر مضرة وافدحها اصابتنا من هذه الخطة الجمودية ان تنحى اهل الدين عن قيادة المسلمين وزعامتهم ، وأصبح ارشاد المسلمين وزعامتهم في جميع شؤونهم من التعليم والاجتماع والاقتصاد والسياسة ، من وظيفة الذين لايعرفون الدين ولا يشعرون بحاجة الى استرشاده في ناحية من نواحي حياتهم ، وهم مثقفون بثقافة الغرب : تعلموا على منهاجه وتشكلت حياتهم وفقاً لمقتضيات نظام الغرب الاقتصادي وانصاغت حياتهم الاجتماعية في بوتقة الغرب ، وقامت اخلاقهم على القيم والمبادىء الغربية ، واخذوا القانون والشريعة من كليات الغرب الحقوقية وعالجوها طول حياتهم . وكذلك أخذوا مبادىء السياسية وطرقها ومداوراتها كلها عن الغرب ، فكل ماتلقوه من درس وارشاد من هذا الينبوع - ينبوع الضلالة والفساد - ساروا عليه هم انفسهم وجعلوا الامة تسير عليه ، واقتفت الامة اثرهم بكل ثقة وطمأنينة . اما اهل الدين فلا ناقة لهم في هذا الشأن ولا جمل ، واصبح من امرهم ان يقبعوا في زواياهم ويشتغلوا بالدرس والتدريس والذكر والتسبيح أو يرفعوا ايديهم يدعون الله ويستنصرونه لمن بيده زمام القيادة القومية ، وان ارادوا ان يتدخلوا في معترك السياسة ، فلا سبيل لهم الى ذلك الا بأن يتعلقوا بأهداب احد الزعماء السياسيين ويتبعوا خطواتهم ويحذوا حذوهم . وسواء انضموا الى المؤتمر الهندي الوطني أو العصبة المسلمة ، كانوا من الاتباع ، ولم يكن لهم ادنى نصيب في رسم اي خطة من الخطط ، وما استطاعوا ان

يقوموا في وجه اي ضلالة صغيرة او كبيرة أو ينكروها . وغاية ما كان يرجع اليهم ان يباركوا كل خطة يرسمها الزعماء المستغنون عن الدين أو المعادون له ، ويعملوا على اقناع المسلمين بصحتها وموافقتها لما جاء في القرآن والسنة او بعدم كونها خطراً على دينهم على الاقل . ولم يقتصر هذا الداء عند هذا الحد ، بل آل الامر الى انه قد بورك في مبدأ اللادينية - Secularism – من قبل كثير من معاهدنا ومؤسساتنا الدينية « المقدسة » ولكن لاتسأل ، على كل ذلك ، عن شدة ارهاف شعورهم الديني في شأن الجماهير الذين لايملكون اي سلطة ولا نفوذ ، فيكاد يكفي في نظرهم لينسبوهم الى الفسق ومخالفة الدين ان يأخذ احدهم من لحيته ، ويعدونهم هادمين للدين اذا خالفوهم شيئاً ما في بعض المسائل الجزئية غير المنصوص عليها في الكتاب والسنة . واما الذين استبدوا بالزعامة وسارت الامة خلفهم وهتفت باسمائهم أو نالوا شيئاً من القوة السياسية ، فيعدونهم مستحقين لكل رخصة في الدين ولو تزعزع على ايديهم بناء الدين من اساسه .

* * *

ماذا نريد

سادتي ! قد استعرضت لكم تاريخ بلادنا الماضي وما عليه اوضاعها الحاضرة ؛ وليس غرضي من كل ذلك ان اطعن في احد ، وانما اردت بذلك ان تعرفوا الحالة الحاضرة وما تستند اليه من الاسباب والعلل التاريخية ، ليسهل عليكم ان تحيطوا علماً ببرنامجنا العملي الذي وضعناه واخترناه مستمدين التوفيق من الله ومتوكلين عليه وحده لاصلاح «باكستان» في مثل هذه الاحوال وجعلها رافعة بيدها لواء النشأة الاسلامية الجديدة في العالم كله .

وقد عرفتم من خطبتي الافتتاحية ماتتسع اليه دائرة الفساد ، وتمتد اليه جذوره في كل شعبة من شعب حياتنا القومية . وكذلك عرفتم من خطبتي هذه ماهي الاسباب والعلل التي تغذت منها كل مفسدة من مفاسدنا حتى نالت مانالت من القوة والشدة . وكذلك علمتم ان لكل مفسدة من هذه المفاسد اصلاً متأصلاً في تاريخنا وتقاليدنا ونظامنا التعليمي والمدني والسياسي ، وأن مفاسد الشعب المختلفة متساندة في مابينها استناداً قوياً محكماً . فلا ارى بعد كل ذلك رجلاً قد اوتي حظاً من العقل والبصيرة يمتنع عن التسليم بأن مشروعاً من مشاريع الاصلاح الجزئي لايكاد يجدي شيئاً في هذا الشأن ؛ وقصارى مايمكنكم بانشاء المدارس الدينية وتلقين

الناس الشهادتين والصلاة ووعظهم بالاقلاع عن الفسق والعصيان ومحاربة الفرق الضالة ان تحولوا بعض الحيلولة دون مصير الدين الى الهـــلاك ، وتمسكوا بعنانه حتى يُنسأ في عمره قليلا ، وتحظى الحياة الدينية العامـــة بانفاس قليلة اخرى . ولكن كيف يرجى ، من مثل هذه التدابير ، ان تعلو كلمة الله وتذل بازائها كلمات الجاهلية؟ وذلك ان الاسباب والعلل التي مازالت الى اليوم تعمل على قهر كلمة الله واعلاء كلمات الجاهلية ، تبقى قائمة حية في هذه الحال . وكذلك اذا اردتم ان يبقى النظام الحاضر قائماً على اسسه وقواعده الحاضرة ثم تصلحوا مفسدة من المفاسد الموجودة اليوم في اخلاقكم أو اجتماعكم أو عشرتكم أو اداورتكم أو سياستكم ، فلا يمكن ان يتحقق ذلك بحيلة من الحيل ابداً ، لأن كل شيء منها قد تولد من المفاسد الاساسية لنظام الحياة الحاضر ورضع بلبانها وتربى في حضنها ، وكل مفسدة منها مستندة الى مفاسد كثيرة اخرى . فلا بد لازالة فساد شامل للحياة كلها من برنامج جامع يقوم بعمل الاصلاح من الجذر الى الفروع بغاية من الاتزان والتناسب . فماذا ينبغي ان يكون هذا البرنامج وما هو عندنا ؟ فهذا ما اريـــد الكلام عليه الآن ، ولكن يحسن بي قبل الشروع في هذا الكلام ان اوجه اليكم سؤالاً مهماً وهو « ماذا تريدون في حقيقة الامر » ؟ أو بكلمة اصح « من يريد منكم وماذا يريد »؟

فالحق اننا بلغنا الآن مرحلة من مراحل تاريخنا قد اوضحت التجارب فيها أن هذا المزيج من الاسلام والجاهلية الذي ظل نظام حياتنا الى الآن ، لا يمكن ان تطول به الحيـــاة ، واذا طالت ، فلا بد ان يفضي بنا الى الهلاك الكامل في الدنيا والآخرة ،

وقد اصبحنا لأجله في حالة لانـكاد نهتدي الى مخرج منها . فلا نـكاد ننقطع الى الحياة الدنيا ونسعى للظفر بلذائذها ومنافعها على الوجـه الشامل كما ظفرت بها بلاد امريكا وانـكلترا وروسيا ، لأن العلاقـة التي تربطنا بالايمان والاسلام لاتـكاد تسمح لنا بأن نسلك هذا الطريق منطلقين غير مبالين بشيء . وكذلك لانـكاد نتصر جهودنا وقوانا في اعمال توصل الى نعيم الآخرة شأن الامة المسلمة الصادقة في ايمانها ، فان الجاهلية التي قد استولت على عقولنا واخذت بمجامع البابنا ، لاتكادتسمح لنـــا بذلك ابداً ، فهذا التذبذب الذي نحن فيه في هذه المرحلة من حياتنا يحول بيننا وبين أن نؤدي حق دنيانا أو آخرتنا ، ولأجله لايزال كل عمل من أعمالنا ، دينياً أو دنيوياً ، مضاراً للفكرتين المتضاربتين والاتجـــاهين المتخالفين ،فتعمل كل فكرة على مخالفة الاخرى وابطال عملها ولا تسمح لنا باداء حقها ومطالبها على الوجه الصحيح . فمن الواجب علينا ان نقضي باسرع مايمكن على هذه الحالة من التذبذب ونتجرد اما لهـذا او ذاك ، ان كنا لانريد الشر لانفسنا .

ولكن لايمكن تحقق هذا التجرد الا باحدى الوجهتين ، فعلينا ان ننظر من ذا الذي يختار هذه الوجهة أو تلك ؟ فالوجهة الاولى ان نختار الطريق نفسه الذي قد ارشد بلادنا اليه حكامنا السابقون وثقافتهم الغالبة ، ثم نربي انفسنا على ثقافة مادية بحتة غير آبهين لله والآخرة والدين والثقافة الدينية والاخلاق الدينية ، حتى تكون بلادنا ايضاً مثل بلاد امريكا أو روسيا ، الا ان هذا الطريق مخالف للحق مدمر لكياننا على كونه خاطئاً. بل الذي اجزم به أن هذا الطريق لايمكن تحققه في «باكستان» أبداً ، لأن حب الاسلام والتفاني في الولوع به لهما جذور متأصلة في قلوب اهل هذه

البلاد ونفسياتهم وتقاليدهم ولا قبل باقتلاعها منها لقوة من القوى الانسانية ابداً . غير ان الذين لايريدون سلوك هذا الطريق ، لا احب ان اخاطبهم بهذه الكلمة ، بل نريد ان نؤذنهم بالحرب بدل ان نعرض عليهم برنامجنا .

والوجهة الثانية ان نختار لحياتنا الفردية والقومية ذلك الطريق المستقيم الذي هدانا اليه كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذلك ما نريده ونظن انه كذلك يريده ٩٩٩ من كل الف نسمة مسلمة من اهل هذه البلاد ، وهو الذي ينبغي ان يبتغيه من يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر ، ولكن ينبغي ان يعلم علم اليقين كل من يحب هذا الطريق ان الاحوال التي نجتازها اليوم وهي ضاربة علينا من كل جهة ، ليس من السهل اليسير ان نجعل فيها الاسلام الخالص هو فلسفة الحياة ونظامها الغالب الوحيد في باكستان .

ولا بد لهذا الغرض ان نحلل مزيج الاسلام والاوضاع القديمة غير الاسلامية ، الذي قد أحكمته فينا تقاليد القرون العديدة ثم نميز منه اجزاء الاوضاع القديمة غير الاسلامية ونأخذ جوهر الاسلام الخالص الذي يثبت خلوصه ونقاؤه اذا عرضناه على مقياس الكتاب والسنة . والظاهر انه لا يمكن ان يتحقق ذلك بدون ان نلقى المقاومة الشديدة من الذين لهم ولوع شديد بجزء من اجزاء هذه الاوضاع القديمة .

وكذلك لا بد بهذا الصدد ان نميز ما حازه الغرب من الرقي الحقيقي في المدنية والعلوم عن ضلالاته في فلسفة الحياة ووجهة الفكر والنظر والاخلاق والاجتماع ، ثم نأخذ الاول ونستفيد به ونضرب الصفح عن الثاني ونطهر من ادناسه شؤون حياتنا كلها . ومن البين الذي لا خفاء فيه انه لا يمكن ان يتحمله من قد جعلوا دينهم التفرنج الخالص او طبعة من طبعات الاسلام الفرنجية .

ويحتاج ذلك الى ان يكون عندنا عدد من الرجال الجامعين بين العقلية الاسلامية والكفاءات الانشائية والمالكين للطباع المحكمة والاخلاق الفاضلة والعزائم القوية ، ثم يضطلعوا جميعاً بهذا العمل الجليل بطريق منظم.

ولا يخفى عليكم ما لهذا النوع من البشر من قلة شديدة في مجتمعنا، ثم كيف يمكن ان نظفر منهم بسهولة برجال أولي قوة وجلد يتحملون الصدمات السياسية والاقتصادية ويثبتون لما يصوب اليهم من سهام الفتاوى ويقاومون بغاية من الصبر والأناة الاكاذيب الملفقة والافتراءات الكاذبة التي تهاجمهم من كل جهة .

ومع كل ذلك لا بد ان تكون الحركة التي تقوم لاعلاء كلمة الاسلام وجعل نظامه نظاماً غالباً في الارض متدفقة تدفق السيل ، كما جاءت الينا الثقافة الغربية كسيل جار واستولت على كل شعبة من شعب حياتنا، فانه لا يمكن ان تُزَحزِح الثقافة الغربية عن مكانها وتنحى عن منصب الغلبة والهيمنة الذي تبوأته من غير هذا التدفق والهيمنة ، كما لا يمكن ان نبدل النظام الحاضر للتعليم والقانون والاقتصاد والسياسة ونقيم مكانه نظاماً آخر على الأسس الاسلاميه الخالصة .

فهذا ما نريده ونبذل الجهود في سبيله. لانريد ان نحيي حضارة المسلمين وثقافتهم القومية القديمة ، وانما نريد ان نحيي الاسلام ونقيم نظامه . ولا نخالف العلوم الحديثة وما أتت به من مخترعات ومستحدثات في مختلف شعب الحياة والكون ، وانما نحارب النظام الثقافي المدني الذي ولدته الفلسفة الغربية للحياة والاخلاق . ولا نريد ان نحشر الغوغاء ونجعل منهم كتلة مصطنعة كما يفعل المشعوذون السياسيون ، بل نريد ان نستخلص من جسد الامة جوهره ونلتقط اجزاءه الخالصة فنجعل من هذا وذاك جماعة متراصة

تستعد لمحاربة الجامدين والجاحدين معاً في سبيل اعلاء كلمة الاسلام الحقيقي الذي جاء به الكتاب والسنة لنجعل منه النظامَ الغالب للحياة في هـــذه البلاد ؛ ولا نكتفي بأن نصبغ بصبغة الاسلام ناحيةً او بعض نواحٍ من الحياة ، بل نصر اصراراً شديداً على ان نجعل الاسلام هو المهيمن على الحياة الانسانية بجذافيرها مهيمناً على الطباع الفردية والعشرة البيتية ومسيطراً على العلوم والفنون والآداب ومعاهد التعليم والتربية ومستولياً على محاكم القانون وميادين السياسة ودواوين الحكومة وادارتها ، وانتاج الثروة وتوزيعها . فبسلطة الاسلام الشاملة المهيمنة هذه وحدها يمكن ان تتجرد «باكستان» للغاية المنشودة وتتمتع حق التمتع بالمنافع الروحية والخلقية والمادية التي هي نتيجة لازمة فطرية لاتباع ما أنزل الله وهدى اليه رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، وبها وحدها يمكن الرجاء ان تصبح هـــذه البلاد مركزاً للدعوة الى الخير في سائر البلاد المسلمة ، ومركزاً للهداية في الدنيا قاطبـــة .

* * *

برنامجنا

فهذه هي غايتنا وأرى ان كل من أحاط بها معرفة ، لا يلقى صعوبة في ادراك برنامجنا العملي . ولهذا البرنامج اربعة اجزاء أريد ان أشرحها لكم كلاً على حدة :

١ — **الجزء الاول** هو تطهير الافكار وتعهدها بالغرس والتنمية ونحن باذلون منذ اعوام جهوداً متتابعة لنجلي للناس ، في جانب ، صراطَ الاسلام الصحيح الحقيقي بعد ان نزيح عن وجهه كل ما يكون قد تغشاه من حجب الجمود على القديم ، وان ننتقد بالجانب الآخر على الغرب علومه وفنونه ونظامه للثقافة والمدنية ونبين للناس ما فيها من الفساد الذي يحسن تركه ومن الصحيح الذي يليق اخذه ، وان نوضح للملأ بالجانب الثالث كيف تطبق مبادىء الاسلام على المسائل والشؤون الحاضرة حتى يقوم في الارض نظام صالح للمدنية والاجتماع وعلى أي صورة تكون في هذا النظام كل شعبة من شعب الحياة . فهكذا نحن باذلون الجهود في احداث الانقلاب في الافكار وتغيير مجرى الحياة بتبديلها وتزويد العقول بالغذاء الفكري للنهضة الجديدة . فنتائج ما بذلنا الى الآن من الجهود في هذه السبيل ، متمثلة امام انظاركم في صورة منشوراتنا ومحاضراتنا ، ومن السهل على كل من ينظر فيها ان يعلم الى أي جهة نحن سائرون ونريد ان نسير اليها بالامة ايضاً .

٢ - **والجزء الثاني** هو استخلاص الافراد الصالحين وجمعهم في نظـام واحد وتربيتهم . فنحن باحثون في هذه المدن والقرى عن الافراد - رجالاً ونساءً - الذين هم منزهون عن السيئات القديمة والجديدة أو يظهرون استعدادهم الآن لينزهوا انفسهم عن تلك السيئات ، والذين يحبون الاصلاح ويستعدون للقيام بكل تضحية باموالهم واوقاتهم وجهودهم في سبيل الحق . وسواء أكان هؤلاء الافراد من المتعلمين الجدد او المتخرجين من المعاهد الدينية القديمة ، وكانوا من العامة او الخاصة ، وكانوا من الاغنيـــاء او الفقراء أو الطبقة المتوسطة ، فحيثما كان مثل هؤلاء الافراد ، نريد ان نخرجهم من مجاهل الدعة والعافية ونأتي بهم الى ميادين العمل والسعي . فان قبلوا غايتنا ومنهاج عملنا ونظام جماعتنا ، جعلناهم من اعضاء جماعتنا ، وان أرادوا الاكتفاء بتأييدنا والموافقة على منهاجنا وغايتنا دون الاقدام على تحمل اعباء العضوية وتحقيق شروطها ، دعوناهم الى الانضمام الى حلقـــة الانصار لجماعتنا . ومقصودنا من كل ذلك ان نستخلص من أمتنا ونجمع على رصيف واحد كل من نجد فيها من الافراد الصالحين الذين لا يكادون يقومون بشيء نافع في خدمة الاسلام امـا لتفرقهم وانتشارهم أو لبذلهم جهودهم في الاصلاح الجزئي ؛ فنريد ان نجمعهم جميعاً ثم نشغلهم بسعي منظم للاصلاح والبناء طبقاً لبرنامج حكيم موضوع لهذا الغرض .

ولا نتبلغ بهذا التنظيم فحسب ، بل الذين ننظمهم في سلك واحد بهذا الطريق ، نعنى بتربيتهم الفكرية والخلقية حتى تكون فكرتهم اكثر وضوحاً وطباعهم اكثر نزاهة وقوة واجدر بالثقة والاعتماد . ولا يخفي علينا منذ اول امرنا انه من المستحيل ان يقوم النظام الاسلامي بمجرد رسم الخطط على القرطاس والدعاوى الفارغة ، بل الذي يتوقف عليه قيامه ونفاذه

هو : هل يستند هذا النظام الى مواهب فكرية انشائية وطباع فردية صالحة ام لا ؟ فان الخلل الذي يحدث في البناء لما عسى ان يكون قد بقي في الخطط المرسومة من نقص ، قد يسده العلم والتجربة بحول الله وتوفيقه ، لكن انعدام الكفاءة والصلاح لا يمكن ان ينهض بأي بناءٍ ، وان تمكن من ذلك ، فلا يمكن ان يحتمله طويلاً .

٣ - **والجزء الثالث هو « السعي في الاصلاح الاجتماعي »**. وهو يشمل اصلاح كل طبقة في المجتمع حسب احوالها ، وتتسع دائرته على قدر ما تتوافر وسائلنا . فنقسم اعضاءنا والعاملين من أنصارنا الى مختلف شعب العمل على حسب كفاءاتهم ومواهبهم ونوسد الى كل منهم من العمل ما يلائم فطرته . فمنهم من يعمل في سكان المدن ومنهم من يعمل في اهل القرى ؛ ومنهم من يعني بشؤون الفلاحين ومنهم من يهتم باحوال العمال والأجراء . ومنهم من يقوم بالدعوة في الطبقة المتوسطة ومنهم من يقوم بها في الطبقة العليا . ومنهم من يسعى لاصلاح الموظفين الرسميين ومنهم من يعمل على اصلاح التجار والصناع . ومنهم من يبذل جهده في المعاهد الدينية القديمة ومنهم من يسعى في الكليات الجديدة . ومنهم من يشتغل بهدم معاقل الجمود ومنهم من يشتغل بصد تيار الكفر والالحاد والفسق . ومنهم من يعمل في ميدان الشعر والادب ومنهم من يعمل في ميدان العلم والبحث والتحقيق . فهؤلاء جميعاً وان كانوا قائمين باعمالهم في دوائرهم الخاصة ، ولكن قد وضعوا امام اعينهم مقصداً وحيداً ومشروعاً بعينه يريدون ويجتهدون ليوجهوا اليه جميع طبقات الامة . فغايتهم المحددة التي يرمون اليها جميعاً ان يقضى على الفوضى الفكرية والعملية والخلقية التي قد شملت الامة كلها لاجل الميول الجمودية القديمة والاتجاهات الانفعالية الجديدة ،

وان يحدثوا في افراد الامة جميعاً — من العامة الى الخاصـــة — الفكرة الاسلامية الصحيحة والسيرة الاسلامية الرشيدة والحياة العملية الخالصة التي ينبغي ان يكون عليها كل مؤمن بالله ورسوله .

وانهم لايقومون بكل ذلك بمجرد الوعظ والارشاد ووسائل النشر والمحادثات والمحاورات الشخصية فحسب ، بل قد رسموا للعمل في مختلف النواحي والجهات برامج انشائية مرتبة ولا يزالون متقدمين الى غايتهم ، موفقين بنعمة من الله وفضل . فحيثما ينجح رجالنا العاملون في دعوتهم ويجدون رجالا يوافقونهم في الدعوة ، يؤلفون منهم دائرة يسمونها دائرة المتفقين ، ثم يعملون بمساعدتهم على تحقيق برنامج اذكر لكم بعض اجزائه.

« اصلاح مال المساجد وتعريف عامة الاهالي بتعاليم الاسلام الاساسية والاهتمام بتعليم الاميين وانشاء دار المطالعة في الحي على الاقل والسعي الاجتماعي لانقاذ الناس من الظلم والعدوان وبذل العناية بالنظافـة وتهيئة الاسباب لحفظ الصحة بمساعدة عامة الاهالي وترتيب الفهارس لاسماء اليتامى والايامى والعجزة والطلبة الفقراء والسعي لاعانتهم بطرق ممكنة واقامـة مدرسة ابتدائية أو ثانوية أو مدرسة للتعليم الديني تعنى مع تعليم الطلاب بتربيتهم الخلقية ، على حسب ماتسمح به الظروف وتتسع له الوسائل » .

وكذلك لانكتفي بمجرد الوعظ والارشاد لانقـــاذ العمال من سموم الشيوعية ، بل نبذل جهودنا فعلًا لحل مسائلهم ايضاً . فقد بدأنا بتنظيم جديد للاجراء وسائر الطبقات العاملة ، ووضع اساس هذا التنظيم على الفكرة الاسلامية الخالصة . والمقصود من ورائه اقامة العدل لا تأميم وسائل الانتاج ، ومبدؤه السعي للحصول على الحقوق المشروعة المعقولة لا احداث المجادلات

والمشاكسات بين مختلف الطبقات . ومنهاج عمله منهاج خلقي موافق للقانون لا منهاج الهدم والتخريب . والذين ينخرطون في سلك هذا التنظيم، لا ينظرون الى حقوقهم فحسب ، بل ينظرون ايضاً الى واجباتهم. ومما يشترط عليهم أنهم سيؤدون ماعليهم من الواجبات بكل امانة وصدق . ثم لاتقتصر دائرة عملهم عند مصالح طبقتهم فحسب ، بل ان كل طبقة لها علاقة بهذا التنظيم ، تهتم مع المحافظة على حقوقها باصلاحها الديني والخلقي والاجتماعي ايضاً .

والمبدأ الاساسي لمنهاج الاصلاح الشامل هذا، هو أن كل من بدأ بعمله في دائرة من الدوائر او طبقة من الطبقات ، فليتقن عمله بطريق متصل منظم ولا يفتر عن سعيه فيها حتى ينتهي الى نتيجة معلومة . ولسنا ممن يلقون البذور في ارض الفضاء كالطائرات في جو السماء او الرياح العواصف، بل نريد ان نعمل كما يعمل الفلاح في رقعة معينة محدودة من الارض ويغرس فيها البذرة، ثم لا يستريح ويقعد عن تعهد حالها من غرس البذرة الى حصد الزرع حتى تنتهي جهوده الى نتيجة معلومة . فالطريقة الاولى توجد الغابات وبالثانية تزدهر الزروع المنسقة .

٤ ـ **والجزء الرابع** من اجزاء هذا البرنامج هو «**اصلاح الحكم والادارة**». ذلك بأنه من عقيدتنا انه لايمكن ان ينجح تدبير من التدابير في اصلاح مفاسد الحياة الحاضرة مادامت لاتبذل المساعي لاصلاح نظام الحكم والادارة مع المساعي الاخرى للاصلاح ، فان الفساد الذي يبث في الناس آثاره معتمداً على قوى التعليم والقانون والادارة وتوزيع الرزق، لايمكن ان تجدي شيئاً في درئه تلك المساعي التي تبذل للاصلاح والبناء معتمدة على وسائل الوعظ والتلقين والدعوة والارشاد . فان كنا نريد اليوم ان نصرف بنظام الحياة في بلادنا عن طريق الضلال والفساد والفسق والعصيان

ونسيره على طريق الاسلام المستقيم ، فلا مندوحة لنا من ان نبذل سعينا بطريق مباشر في ازاحة الفساد عن منصة النفوذ والسلطة واحلال الصلاح مكانه . والظاهر انه اذا كان زمام الامر والسلطة بايدي الصالحين المؤمنين، فانهم يحدثون في اعوام قلائل من التغيرات الهامة في نظم التعليم والقانون والادارة مالا يمكن ان نأتي به الجهود غير السياسية في مدة قرن كامل .

اما كيف يتأتى هذا التغير ، فليس له من سبيل في نظام جمهوري الا السعي في الانتخابات . وذلك ان نربي الرأي العام في البلاد ونغير مقياس الناس في انتخابهم لممثليهم ، ونصلح طرق الانتخاب ونطهرها من اللصوصية والغش والتزوير ، ثم نسلم مقاليد الحكم والسلطة الى رجال صالحين يحبون ويقدرون ان ينهضوا بنظام البلاد على اسس الاسلام الخالص . ومن حسن حظنا ان « قرار مبادىء الدستور » قد ازاح عن طريقنا جميع العقبات الدستورية التي كانت تحول الى الآن بيننا وبين اختيار هذا الطريق . فبمجرد زوال هذه العقبات في سبيلنا ، بدأنا نشترك في معترك الانتخابات ولا يزال امام اعيننا في هذا العمل نفس الغاية التي قد بينتها لكم آنفاً .

الكلمة الاخيرة :

سادتي الكرام ! قد بينت لكم في خطبتي الافتتاحية وفي هذه الخطبة ذلك المرض الذي نحن مصابون به . وكذلك شرحت لكم اسبابه وفصلت القول في طريق علاجه وعرضت عليكم الغاية التي ننشدها ولأجلها نبذل هذه الجهود في علاجه . فعلى كل واحد منكم الآن ان يقضي في نفسه هل ينبغي له ان يشاركنا في هذا العمل او يقاومنا فيه أو يحايد الطريق ويمتع نفسه برؤية المنظر ؟ ولكن يجب عليه — مهما كان قضاؤه — ان

يتفكر ماذا يكون جوابه عند الله تعالى يوم القيامة · قد اخترنا لانفسنا على بصيرة تامة غاية للحياة وطريقاً للعمل نجاهد لأجلها في كل حال ، سواء ايثار كنا احد او يزاحمنا أو يحايد الطريق . واما اذا كان في عملنا شيء من النقص واراد احد ان ينبهنا عليه ويوضحه لنا بالدليل والحجة ، فسيجدنا مستعدين كل الاستعداد لازالته عن انفسنا واصلاح اعمالنا متشكرين له ان شاء الله . ونحمد الله تعالى على اننا لسنا من الذين يزكون انفسهم . ولكن في الوقت نفسه اذا كان احد يظن انه سيصدنا عن المضي في سبيلنا باختلاف الاكاذيب واصدار الفتاوى الملفقة واستخدام القوة السياسية . فاننا نريد ان نوضح له في هذا المقام جهاراً متوكلين على الله وحده ان مثل هذه الاعمال الشنيعة لن تفضح إلا نفسه ولن تضرنا شيئاً ان شاء الله .

وفي الختام ادعو الله تعالى واتضرع اليه ان يلهمنا الصبر والثبات ويشرح صدور عباده لما قلت في هاتين الخطبتين ويوفقهم للتعاون معنا في سبيله ان كان حقاً ، وينقذنا واياهم عن شره ان كان باطلاً .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

* * *

منشورات دار العروبة للدعوة الاسلامية

ظهر منها :

آ - للاستاذ ابي الاعلى المودودي:

١ - مباديء الاسلام (نفذ)
٢ - المصطلحات الأربعة في القرآن
٣ - البيانات
٤ - أسس الاقتصاد بين الاسلام والنظم المعاصرة
٥ - نظرية الاسلام الخلقية
٦ - الاسس الأخلاقية للحركة الاسلامية
٧ - نحو الدستور الاسلامي
٨ - الدين القيم (نفذ)
٩ - نظرية الاسلام السياسية
١٠ - الجهاد في سبيل الله (نفذ)
١١ - منهاج الانقلاب الاسلامي
١٢ - الاسلام والجاهلية (نفذ)
١٣ - معضلات الاقتصاد وحلها في الاسلام (نفذ)
١٤ - نظام الحياة في الاسلام (نفذ)
١٥ - شهادة الحق (نفذ)
١٦ - المسألة القاديانية

ب - للاستاذ مسعود الندوي :

١ - الاسلام ودعوته
٢ - الجماعة الاسلامية
٣ - نظرة اجمالية في تاريخ الدعـوة الاسلامية

تحت الطبـع :

١ - مسألة ملكية الارض في الاسلام
٢ - تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند وباكستان
٣ - موجز تاريخ احياء الدين وتجديده
٤ - الربا
٥ - جميع الرسائل التي نفذت

تحت التعريب :

١ الحجاب
٢ - دعوة الدين ومنهاج القيام بها
٣ - تفهيم القرآن
٤ الثقافة الاسلامية ومبادئها

تطلب هذه المنشورات من العنوان الاتي :

مكتبة الشباب المسلم
دمشق - شارع الحلبوني
ص ب . (٥٥٦)

مطبوعات

مكتبة الشباب المسلم

دراسات اسلامية	للاستاذ سيد قطب	« نفذ »
خواطر	〃 سعيد رمضان	« من مكتبة المسلمون »
أواصر الجماعة المؤمنة	〃 〃 〃	〃 〃 〃
أخلاقنا الاجتماعية	〃 مصطفى السباعي	« من أحاديث الدعوة »
نظرية الاسلام الخلقية	〃 ابو الأعلى المودودي	« ذخائر الفكر الاسلامي »
الاسس الاخلاقية للحركة الاسلامية	〃 〃 〃	〃 〃 〃
واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم	〃 〃 〃	〃 〃 〃

* * *

تم طبع هذه الرسالة في « المطبعة التعاونية »
في ١٠ ربيع الآخر سنة ١٣٧٦ هـ
١٤ تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ م

دعوتنا

١ - دعوتنا للبشر كافة والمسلمين خاصة أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً ولا يتخذوا الهاً ولا رباً غيره .

٢ - ودعوتنا لكل من أظهر الرضا بالاسلام ديناً أن يخلصوا دينهم لله ، ويزكوا أنفسهم من شوائب النفاق ، وأعمالهم من التناقض .

٣ - ودعوتنا لجميع أهل الأرض أن يحدثوا اصلاحاً عاماً في اصول الحكم الحاضر الذي استبد به الطواغيت والفجرة الذين ملأوا الأرض فساداً ، وأن ينتزعوا هذه الإمامة الفكرية والعملية من أيديهم حتى يأخذها رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر ويدينون دين الحق ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً .

الجماعة الاسلامية بباكستان

٦٠ قرشاً سوريا أو ما يعادلها

المطبعة التعاونية في دمشق